

علاج الكُفْرِ



ظاهرة التكفير .. الأسباب والعلاج والآثار



مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٨ - البحث ٨

مسؤولية المؤسسات الإجتماعية في
علاج داء التكفير: مقارنة تأسيسية
أولية من منظور قرآني

أ.د. السيد عمر

أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية
بجامعة العلوم التطبيقية بالبحرين

حدود الدراسة وإطار المعالجة:

تسعى هذه الدراسة إلى تقديم مقارنة أولية في بناء مفهوم التكفير عبر التحليل السياقي للمواطن التي وردت فيها مادة (كفر) بمختلف تصريفاتها في القرآن الكريم، لتنتقل من ذلك إلى بناء مفهوم المعالجة المؤسسية لهذا الداء في الواقع الراهن والمأمول، بإطلالة على مفهوم المسؤولية الاجتماعية في المنظور الإسلامي، والفضاء المعرفي لمفهوم المؤسسات الرسمية وغير الرسمية ودورها بشتى صورته في مواجهة هذه الظاهرة في وضعيته الراهنة والخطوط العريضة لترشيده.

وفي ضوء هذا التصور تطبق هذه الدراسة منهجية التحليل السياقي وتشمل المحاور التالية: التعريف بداء التكفير في المنظور الإسلامي، وبناء مفهوم المسؤولية الاجتماعية في المنظور الإسلامي (منظومة الرعاية المتبادلة والنصيحة المؤسسية والتدافع وتغيير ما بالنفس)، وماهية المؤسسات الاجتماعية في المنظور الإسلامي، والدور الوقائي للمؤسسات الاجتماعية في معالجة الانحرافات التكفيرية غير المسلحة الكامنة والفعلية، والدور العلاجي للمؤسسات الاجتماعية في معالجة الانحرافات التكفيرية المسلحة الكامنة والفعلية. وتتناول الدراسة هذه المحاور في ثلاثة مباحث وخاتمة، يختص أولها ببنية مفهوم التكفير وتشابكه مع مفهوم الكفر في القرآن الكريم. ويسلط المبحث الثاني الضوء على مفهومي: المسؤولية الاجتماعية وخصوصية مفهوم المؤسسات الاجتماعية في المنظور الإسلامي، ويرصد المبحث الثالث واقع تلك المؤسسات ودورها في علاج الظاهرة محل البحث، وأطر ترشيده. وينتهي البحث بخاتمة تؤكد على أن ظاهرة التكفير جمعية الطابع ويستحيل علاجها إلا في سياق مؤسسي جامع منضبط بالمعيارية الإسلامية.

المبحث الأول

التعريف بمفهوم التكفير في السياق القرآني

ثمة فرق جوهري بين مفهومى: الكفر، والتكفير. والكفر لغة هو مطلق الستر والتغطية. فالكفر هو عدم إيمان المرء بالله من الأساس، وفقدان المرء إيمانه، وكفر نعمة الله، والتبرؤ من الأمر. وتكفير الله الذنب عن الإنسان هو مغفرته له^(١). وتتسع مادة (كفر) في القرآن الكريم لتشمل ما حقه الستر والتغطية من الشرك والذنوب، بما لذلك من مضامين إيجابية، في مقابل جحد التوحيد وعدم شكر النعمة، بما له من مضامين بالغة السلبية. فهذا المفهوم في أصله محايد والعبارة بمضمونه. والكفر بمعناه السلبي هو في الاصطلاح: نقيض الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، إما بتكذيب أو شك أو إعراض. ومن بين أنواعه: التكذيب القلبي، والتكذيب الظاهر باللسان والجوارح، واستحلال ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، والإعراض والاستكبار عن اتباع الحق الذى جاء به النبي الخاتم، والشك والريبة بعدم اليقين بصدق ما جاء به سواء بإضمار ذلك بالقلب، أو الجهر به، أو بالنفاق بإبداء التصديق به في الظاهر دون الباطن. فالكفر بهذا المعنى إما تكذيب بالقلب، أو بالقول أو بالفعل.

والكفر بهذه المضامين حالة تقوم على اختيار حر مسؤول، شاءت إرادة الله تعالى أن يجعله بمقدور الذات الإنسانية الفردية والجماعية، فيما يتعلق بأوامر الله تعالى التكليفية، بهدأيته للإنسان النجدين، وبتقريره لمبدأ عدم

(١) د. إبراهيم مدكور (وآخرون)، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٩٨، ص ٥٣٧.

الإكراه في الدين.

ومع أن مفهوم التكفير ينباع من ذات مادة (كفر) فإنه يدور في مضامينه حول واحد من مضامين ثلاثة: اتهام طرف لآخر بالتلبس بحالة الكفر سواء كان ذلك الاتهام قائماً على أساس أو عار عن الصحة، والسعى الذاتي من طرف معين للتلبس بحالة الكفر، وسعى طرف معين لجر طرف آخر إلى حالة الكفر.

وسؤال هذا المبحث الرئيس الذي نسعى لتقديم إجابة أولية له يتعلق ببناء خريطة بالغة العمومية لهذا المفهوم من القرآن الكريم، لنفحص من خلالها فرضية ثلاثية الأركان: قابلية الإنسان للإصابة بداء الكفر، وبداء التكفير، وحاجته ممن ثم إلى التحصين منهما، وإلى الدفع والتوبة، وانفراد الله تعالى بالعقاب على ذات الكفر دون أحد من خلقه، والإذن لأمة الإجابة في مواجهة غير المسلمين القاصر على التحصن ضد إتاحة الفرصة لهم لفتنتها في دينها، وامتلاك أسباب رد من يضيف إلى الكفر العدوان عليها. ولا يتسع المقام للمبحث المسحى المستفيض للفضاء المعرفي القرآني لتلك الخريطة بأبعادها الثلاثة المشار إليها، وسنكتفي بعينة تمثيلية.

أولاً: القسّمات الكبرى لمادة (كفر) في القرآن الكريم: يكشف استقراء هذه المادة في القرآن الكريم عن نتائج ذات دلالات بالغة الأهمية، من بينها:

١- غلبة صيغة الجمع: يتسع مفهوم (الكفر) ليشمل أفراداً أو جماعات، وكيانات جماعية. ومن الملاحظ أن الحالات التي وردت فيها تلك المادة مشيرة إلى ذوات فردية تحتمل الإشارة إلى ذوات جمعية ينظر إلى كل منها على أنها بمثابة الذات الفردية.

فلقد وردت تلك المادة بصيغة الفعل الماضي (كفر) ثلاثاً وعشرين مرة، مشيرة في واحدة منها بالآية ١٠٢ من سورة النحل إلى قرية. وفي المقابل، وردت

بصيغة الفعل الماضي الجمع ٢٠٦ مرة، وبصيغة الفعل المضارع الجمع خمسين مرة. ووردت بصيغة الأمر المفرد المحتمل للجمع مرة بالآية ١٧ من سورة الحشر، وبصيغة الجمع مرة بالآية ٧٢ من آل عمران.

وورد لفظ (الكفر) ١٧ مرة، وبصيغة النكرة ثماني مرات، وبالتعريف بالإضافة اثنتى عشرة مرة، كلها مرتبطة بجماعة لا بفرد، عدا سبعة فقط مرتبطة بأفراد^(١).

وفي مقابل ورود لفظ (كافر) خمس مرات، من بينها مرة تشير إلى فئة (الآية ١٣ من آل عمران) ورد لفظ (الكافرون) ١٥١ مرة. ويؤشر هذا كله على مركزية البعد الجمعي في ظاهرة الكفر، وتخطيها بطبيعتها للبعد الفردي في كنهها وفي عواقبها وتبعاتها.

٢- الكفر متصل، وليس مجرد حالة واحدة: في حين أشار القرآن إلى حالة كان فيها قوم في وضعية بينية لا هي بالكفر ولا هي بالإيمان، وإن كانت أقرب للأول منها إلى الثاني، عبر عنها بقوله سبحانه: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران ١٦٧)، وردت نعت أفراد وجماعات بصفة: كافر، وكفار، في حين ورد ذلك النعت بصيغ مبالغة عديدة في مواطن أخرى. فورد بصيغة كفور ١٢ مرة، وبصيغة كفار خمس مرات، وبصيغة أكفر مرة واحدة.

ومعنى ذلك أن الكفر درجات، فكفر دون كفر. ويرتبط المفهوم في السياق القرآني فضلا عن كونه متصلا متعدد المستويات، بباطن لا يعلمه إلا

(١) وردت بالآيات: ٢٣ من التوبة، ١٠٦ من النحل، ٨٠ من الكهف، ٨ من الزمر، ٤٤ من الروم، ٢٣ من لقمان، ٣٩ من فاطر.

الله، وبسلوكيات ظاهرة قد تقف دون العدوان على الغير، ولا السعى لفتنتهم في دينهم، ولا تدخل صاحبها في دائرة السعي إلى التكفير، وترتب له بالتالي حقوقا تصل إلى حد البر والإقساط إليه فردا كان أم جماعة. وقد تدفع به إلى دائرة البغى والعدوان التي تجيز صد صولته، ومنع عدوانه.

٣- الجزء على الكفر، لله وحده: يكشف التحليل السياقي للآيات التي وردت فيها مادة (كفر) بكافة تصريفاتها أن الجزء على الكفر غير المتلبس بتعديه إلى فتنة المسلمين في دينهم والعدوان عليهم، قاصر على الله تعالى. فالإذن بالقتال معلل برد العدوان، ولم يأت إلا بعد استفحال العدوان. والجزء المنصوص عليه في الآيات المتضمنة للإشارة إلى الكفر كحالة وكأفعال يدور بالأساس حول الإهمال والتمتع قليلا فترة هذه الحياة الدنيا قبل اضطرار الله تعالى لهم إلى عذاب النار. وإهمال الشيطان نفسه إلى يوم يبعثون دليل جلي على ذلك.

وفي مقابل عدم شكر نعمة الله، نجد التوكيد على أن الله غنى كريم. وتقف الآيات عند حد فتح باب التوبة ما دام الكافر على قيد الحياة، مع تبيئه إلى وقوعه في الظلم والانحراف عن سواء السبيل، واستحقاق الحرمان من الهداية الربانية، وتحمله مسؤولية كفره، وإنذار القرى والذوات الإنسانية الجمعية بأن الكفر مؤذن بتبدل الحال وبإذاعة الله للواقع فيه لباس الجوع والخوف.

والملاحظ أن المواضع القرآنية التي تضمنت إشارة إلى عقوبة دنيوية للكفار قليلة، وكاشفة عن أن القارعة تحل بهم بفعلهم بأنفسهم في المقام الأول، وأن ما يصيبهم على أيدي المؤمنين مسبب بتماديهم في العدوان، لا بذات الكفر مع المسألة، وهي مقرونة على نحو ثابت بفتح باب التوبة لهم^(١).

(١) من ذلك على سبيل المثال: البقرة: ٥٦، الأنفال: ٢٨.

ومن المؤشرات العميقة الدلالة في هذا الصدد أن مادة (كفر) في القرآن متضمنة في خمسة عشر موضعا للتكفير عن الذنوب، وكون الإسلام يجب ما قبله^(١). ويعمق من دلالة هذه المعطيات الهدي المستخلص من البيان النبوي المؤكد على دور المجتمع في الانحراف بالفرد عن الفطرة السوية. يقول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"^(٢). ولو أضفنا إلى ذلك مضامين ودلالات التركيبة السكانية لدولة المدينة المنورة، وعهد المدينة المنورة، فإنه سيتبين لنا بجلاء عمق مبدأ عدم الإكراه في الدين في المنظور الإسلامي، والتوجه الإسلامي إلى إقرار حق كل إنسان وكل أمة في تحديد الهوية بدينها، والتسابق في الخيرات وتحديد منظومة علاقاتها مع نفسها ومع غيرها، وحقوقها وواجباتها انطلاقاً من تلك الهوية ومن الكلمة السواء المؤسسة لعبودية العباد لله، ونفي عبودية أحد من البشر لأحد من البشر^(٣).

ثانياً: البنية القرآنية لمفهوم التكفير: وردت مادة (كفر) بالقرآن الكريم مئات المرات، الغالبية العظمى منها بصيغة الفعل، من جهة، وبصيغة الجمع من جهة أخرى. ويستشف من ذلك، أن بناء هذا المفهوم يتأسس على رصد الأفعال والأقوال التي اعتبرها القرآن الكريم سمات لمن وصفهم بالكفر: والتكفير مفهوم يختص بالبداهة برمي طرف معين طرفاً آخر بالكفر.

(١) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧، ص ٦٠٥-٦١٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الحديث رقم ١٢٩٦، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين. وانظر: أبو الفداء اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، القاهرة: المطبعة الفنية، دت، ج ٣ ص ٤٣٣-٤٣٤.

(٣) د. اسماعيل راجي الفاروقي، التوحيد ومضامينه في الحياة، ترجمة ودراسة: د. السيد عمر، قيد النشر.

ومعيار سلامة هذا الرمي هو أن يكون له دليل من القرآن. أما في حالة فقدان مثل هذا الدليل فإنه يكون افتراء مردودا عليه. وقد يتصل مفهوم التكفير بسعي ذاتي لتمثل الكفر كحالة عقيدية، أو كأقوال وأفعال مرتبطة بتلك الحالة قد تقف عند حد الانحراف السلمي، وقد تتخطاه إلى الانحراف الرامي إلى ترويح الكفر بالقوة الناعمة تارة، وبالقوة الخشنة تارة أخرى.

وفي مقابل مئات من الآيات القرآنية المبينة لمفهوم الكفر ونماذجه، تشير آيات معدودات من القرآن إلى داء التكفير كمسعى من جانب فريق من البشر أو من الشيطان لغواية الإنسان بالكفر. من نماذج ذلك قول الله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾^(١).

ومن صور، السعى إلى التكفير، تشكيك فريق من أهل الكتاب، للمسلمين في دينهم، بالتظاهر بالدخول فيه ثم بالخروج منه. يقول الله تعالى حاكيا عن اتباع طائفة من أهل الكتاب لهذه الخديعة: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيْنَا آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٢). وتشير الآية ٢١٧ من البقرة إلى اختلاق غير المسلمين حججا مفتعلة ظاهرها رعاية الحرمات، وباطنها الرغبة في رد المسلمين عن دينهم إن استطاعوا. وتبين الآية ١٠٩ من آل عمران أن طاعة فريق من أهل الكتاب تفضى إلى التحول من التصور الصحيح والاعتقاد الصحيح والفهم الصحيح والنظام الصحيح والتنظيم الصحيح، إلى الوقوع في أسر مناهج ملتبسة وهزيمة نفسية. فالتلقى عن غير المسلمين في العقيدة والمنهج

محظور، بعكس المسائل المادية الحياتية البحتة^(١).

وتحذر البقرة ١٠٩ من أن أسمى أمانى أهل الكتاب هي ردة المسلمين عن إسلامهم. وتبين سورة البقرة ٢١٧ أن الارتداد مع الثبات عليه حتى الموت محبط للعمل في الدنيا والآخرة. وتحذر البقرة ١٠٩ من أن أسمى أمانى أهل الكتاب هي ردة المسلمين عن إسلامهم. وتبين البقرة ٢١٧ أن الارتداد مع الثبات عليه حتى الموت محبط للعمل في الدنيا والآخرة.

وتجلي الآية ٩١ من النساء، والآية ٤٥ من التوبة خصائص نوعية من البشر المترددين في الريبة والفتنة. وترسم سورة الممتحنة معالم الأسوة الحسنة في البراءة من الشرك وأهله.

وتحذر الآيات: ٢١، ٤٥ من سورة المائدة، ٢٥ من سورة محمد من الارتداد على الأدبار. وترسم سورة الممتحنة معالم الأسوة الحسنة في البراءة من الشرك وأهله. وتشير سورة غافر إلى غرور قوم بما عندهم من العلم في مواجهة رسلهم، واستمرار الغفلة بهم إلى يوم لقاء الله، وإعلانهم ساعتها الإيمان بالله والكفر بما أشركوا به من قبل، ورد تلك التوبة عليهم لكونها توبة فزع لا تنفع^(٢).

ومرة أخرى، نلاحظ أن الله تعالى جعل شكر نعمة الله مقابل الكفر. ونجد الجزاء على إنكار أن واهبها هو الله، أو عدم تأدية حقها، أو سوء استعمالها، قاصرا على العذاب الشديد بمحققها وذهاب آثارها والحرمان من

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧، ج ١ ص ٤٣٢-٤٣٧.

(٢) سيد قطب، ج ٥ ص ٣١٠٢-٣١٠١، ج ٦ ص ٦٣٥٣، ص ٢٥٤٢. ويستدل د. محمد طنطاوى من شرعية مؤاكلة ومناكحة أهل الكتاب، ومن تأكيد السنة النبوية على حسن معاملتهم، على ارتباط مفهوم عدم الإكراه في الدين بالتسوية معهم في الحقوق والواجبات في هذه الحياة الدنيا. انظر: د. محمد سيد طنطاوى، من أدب الحوار في الإسلام، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠٠٤، ص ٥٠، ص ٨٢-٩٧.

الزيادة المقابلة للشكر. وفي مقابل الجهر بتكذيب الرسل، ووضع الأيدي في الأفواه والفحش في التكذيب، نجد عدم تعجيلهم بالاستجابة للداعي للإيمان فور دعوتهم، ولا أخذهم بالعذاب فور تكذيبهم، بل إمهالهم إلى أجل مسمى، إما في هذه الحياة الدنيا أو يوم الدين^(١).

ولا يخفى أن هذه الآيات تؤكد على مسؤولية المؤمنين عن اتخاذ كافة الأسباب الكفيلة بصيانة إيمانهم من مساعي غيرهم التكفيرية مع الإلتزام الصارم بمبدأ عدم الاعتداء، وتحملهم تبعه التقصير في ذلك.

ثالثاً: التجفيف القرآني لمنابع تكفير أهل القبلة: يكشف التحليل السياقي لمفهوم الكفر والتكفير:

بكل جلاء عن ضرورة التحرز من رمى أفراد أو جماعات من أهل القبلة بالكفر، جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى التحرز من الإصابة به، ومن التسبب في إصابة الغير به. فالكفر، والتكفير ارتبطا في القرآن الكريم ببيان شاف، دفع الصحابة في صدر الإسلام إلى التحرز من رمي المرتدين والخوارج بالكفر، وعاملوهم على أنهم بغاة مؤمنون، حتى على الرغم من كونهم رموهم بالزور والبهتان، وبالكفر والفسوق.

وسنكتفي في بيان هذا الإجمال، بتحليل السياق القريب لمفهوم الكفر في بعض سور القرآن الكريم^(٢)، برصد مضامينه التي قد يترتب على تعميق وعى العقل المسلم بها، التحرز من رمى أحد من أهل القبلة به. ففي سورة البقرة يأتي مفهوم الكفر وصفاً لأناس يضاهائون في سماتهم النموذج اليهودي بأن: يصروا على جحد الدعوة إلى الإسلام سواء تبين لهم الحق حتى على لسان نبي من أولى

(١) سيد قطب، مرجع سابق، ج ٤ ص ٢٠٩٠.

(٢) هذا التحليل مستقى من السياق القريب للمفهوم في سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، مع

استدعاءات محدودة لمواضع قرآنية أخرى.

العزم من الرسل، أم لم يتبين. فقلوبهم موصدة لا يدخلها خير، ولا ينتفعون بما يسمعون، يشككون في الأمثال الربانية وينقضون العهد ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ويكذبون بآيات الله، ويكفرون بآياته، ويقتلون الأنبياء بغير حق، ويعصون الله، ويعتدون، ويأخذون من الدين ما يوافق هواهم، ويتركون ما وراء ذلك. ومن الثابت أن النبي حذر الأمة من محاكاة اليهود والنصارى، بل من المبالغة في تقليدهم حذو القذة بالقذة^(١).

ومن سمات من يندرجون تحت مفهوم الكفر، من منطلق محاكاة ذلك النموذج اليهودي، وفق دلالات ومضامين سورة البقرة: مخالفة الميثاق بين البشر وربهم، بقتل أنفسهم، وإخراج فريق منهم من أرضهم بغير حق، مع التناقض في موقفهم بقاء أسراهم، بما يقوم دليلاً على تعاملهم برؤية انتقائية مع الشرع، وإتباع الاستماع لأمر الله بعصيانه، والارتياح النفسى بالشرك بالله، ورفض الدعوة للدخول في الإسلام رغم علمهم أنه الحق، والمبالغة في الحرص على الحياة، والعداء لله ورسله وملائكته، ونبذ كتاب الله وراء ظهورهم لصالح اتباع السحر وغواية الشيطان، والسعى لإفساد الأسرة وزعزعة استقرارها، وكراهية تنزل خير من الله تعالى على الأمة الإسلامية، والرغبة في رد المسلمين كفاراً من بعد إيمانهم من باب الحسد لهم، والتعنّت مع الأنبياء وكثرة الاختلاف عليهم كطلب قوم موسى منه أن يريهم الله جهرة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وإرادة الإلحاد بظلم في الحرم، والتفرق والاقتيال بعد تلقى الهدى من عند الله وتكفير فريق منهم للآخر^(٢).

(١) انظر مقارنة مفصلة لنا في بناء هذا النموذج من القرآن الكريم، فضلاً عن الأنماط المحاكية له: نمط التعامل المقطع لأوصال الأمة، ونمط المقتصد التائه، في: د. السيد عمر، الرؤية الكلية الإسلامية والتعامل مع الأمة الإسلامية، ضمن: مؤتمر: الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية، الزقازيق: كلية التربية، ومركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٨، ص ٦٧-٦٨.

(٢) راجع سورة البقرة، الآيات: ٦-٧، ٣٩، ٦١، ٨٤، ٩٢-٩٣، ٩٨، ١٠٢، ١٠٥، ١٢١، ٢٥٣.

ونود الإشارة هنا إلى أن سورة البقرة ربطت الكفر بمضامينه. فالكفر سلبي لا يرضاه الله لعباده فيما لو كان مضمونه على شاكلة ذلك النموذج اليهودي. وهو على العكس إيجابى ومطلوب، فيما لو كان مضمونه هو الكفر بالجبت والطاغوت الذى هو شرط تخلية مسبق، لا يقوم ابتغاء الرشد وتجنب البغى، والاستمسك بالعروة الوثقى، والإيمان الحق، إلا عليه.

وفي القرآن الكريم إشارات صريحة للتعبير عن الإيمان، بمفهوم المخالفة وهو الكفر بضده. من ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه لَاسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة: ٤).

مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

ومن الأمور التى تحتاج لبحث مستفيض ودقيق، حقيقة أن المواضع التى وردت مادة (كفر) بمختلف تصريفاتها بها في القرآن الكريم، خلت في بيانها الجزاء على الكفر ذاته من أى إشارة تفيد من قريب أو بعيد كون أحد غير الله تعالى له فيه قطمير. فكل ما ورد في القرآن من جزاء دنيوى على يد بشر للكفار، إنما هو على العدوان، وليس على الكفر. وهذا هو المقتضى الدقيق لمبدأ عدم الإكراه في الدين.

وواقع الأمر أن بعض الفقهاء المسلمين، وقعوا في لحظات تاريخية تكالبت فيها أمم أخرى على ديار الإسلام، في دعوى نسخ مبدأ عدم الإكراه بما أسماه: آية السيف، وهى دعوى تحتاج فيما أرى إلى إعادة نظر جذرية، لكونها

مسئولة بالأساس عن تفریح الظاهرة التکفیرية في الصف الإسلامي من جهة، واتخاذ غير المسلمين حجة منها على أمتنا، رغم كونها عارية عن أى سند من القرآن، أو من آداب الجهاد في صدر الإسلام، فيما لوسلمنا بما قاله ابن القيم بحق من أن القرآن يصدق بعضه بعضه، وهو بمثابة الكلمة الجملة الواحدة، بل الكلمة الواحدة. ولا بد أيضا من استعادة الوعي بالتحول الذي طرأ على مفهوم النسخ ذاته، وضبطه^(١).

وتتعرز هذه الرؤية بإطلالة خاطفة على الجزء الوارد بسورة البقرة، على من دمغهم القرآن بحق بالكفر. ففي مقابل التحذير من إرادة فريق من أهل الكتاب رد المسلمين عن دينهم، نرى خيرا ربانيا بأن الله تعالى سيمتعه مدة حياته ثم يضطره إلى عذاب النار. يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ١٢٦).

أما بالنسبة لنا معشر المؤمنين، فنجد أمر الله تعالى لنبيه، ولنا بالتبعية بالعضو والصفح. يقول الله تعالى: ﴿ فِيمَا تَقْضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِبَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ١٣).

وأقصى ما نجده في سورة البقرة من دور للبشر في دائرة جزاء الكافر، هو الاشتراك مع الله ورسوله في لعنة من مات منهم على الكفر. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (البقرة: ١٦١).

(١) راجع مقارنة مفصلة لهذه الإشكالية في: د. السيد عمر، تقويم إسلامية المعرفة في ربيع قرن، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، دراسة قيد النشر.

وفي مقابل التحذير الشديد من الاستجابة لضغوط أهل الكفر بالردة عن الإسلام، نجد اتجاه التهديد الشديد بعذاب الله، موجها لمن يستجيب لهم. يقول الله تعالى: "وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيُؤْتِ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة: ٢١٧).

وتبين سورة البقرة أيضا أن مفهوم الكفر نقيض الشكر. فمقابل شكر النعمة بالطاعة، يوجد الكفر بالمعصية. ولا يخفى أن كفر النعمة هذا مختلف في مداه عن الكفر بمعناه المغلظ السالف الذكر. يقول الله تعالى: "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ" (البقرة: ١٥٢).

وتفتح سورة البقرة مداركنا على استحقاق ثلاثة أصناف من البشر وصف الكفر: من يدعون القدرة على الإحياء والإماتة، والمرابين، وأولياء الطاغوت. يقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَرِ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٨). ويقول الله تعالى: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢٧٧). ومن خصال الكفر، التي يجب التحرز منها الغرور بالحياة الدنيا والسخرية بمقاييس دنيوية مادية من الذين آمنوا. يقول الله تعالى: ﴿ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (البقرة: ٢١٢). ولم يجز الشرع لنا في مواجهة عدوان غير المسلمين علينا أكثر من الرد بالمثل، بالمعاقبة على السيئة بمثلها، مع الحث على الرد بالإحسان والعفو. فالآية سالفة الذكر أردفت سخرتهم من المؤمنين، بجزء آخرى يتمثل في الفوقية في الآخرة، وسعة الرزق، دون أى تطرق للرد.

وفي موضع قرآني آخر، رأينا الرد بالمثل فحسب على لسان نوح عليه السلام. يقول الله تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ هود: ٣٨.

وخلاصة القول، أن سورة البقرة تبين بجلاء أنه لا عدوان إلا على الظالمين الراضين للإنتهاء عن الظلم. وأن الجهاد ضد الكفار ليس عقابا لهم على الكفر، بل ردا لعدوانهم ولإمكانية فتنهم للمسلمين في دينهم. وخواتيم البقرة خير شاهد على ذلك، حيث تربط طلب المسلمين النصر من الله على الكفار، بالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، أي بالمغايرة لخصال الكفار، كما تربط التكليف بالوسع والاستطاعة، ويطلب العفو عن الخطأ والنسيان، وبدعوة الله تعالى لوضع الإسر والأغلال عن هذه الأمة وتغمدتها بواسع عفو ومغفرته ورحمته.

وتعزز قراءة سورة آل عمران، ما ذهبنا إليه من نفي القرآن أي دور للمؤمنين في جزاء أي فرد أو جماعة على كفره ذاته. فالجزء الذي ذكر بها للكفار يقتصر حصرا على: العذاب الشديد من الله العزيز ذي الانتقام، والإخبار بأن الله تعالى سيأخذهم بذنوبهم، ولن تغني عنهم أموالهم، ولا أولادهم، وسيكونون وقودا للنار، وإنذارهم بأنهم سيغلبون فيما يسعرونه من حروب عدوان، وسيحشرون إلى ربهم الذي هو سريع الحساب.

أما الجزء المقابل، لتمسك المؤمنين بدينهم والذود عنه، والحيلولة دون جعل أنفسهم في وضعية يفتنون فيها عن دينهم، فهو التمكين لهم في الأرض، وتعذيب الكفار في الدنيا والآخرة، بالإضافة إلى الوعد الرباني بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا لدى عدوانهم على المسلمين، وكبتهم وقطع طرف منهم.

ومن اللافت للنظر أن تعذيب الله تعالى للكفار من أهل الكتاب بالذلة

تضمن أمرين يجب وضعهما في الاعتبار في سبر غور الفرضية التي نحن بصدد التدليل على صحتها، وهما: أن الله اعطاهم حبالاً منه، ممثلاً فيما نرى في الحقوق التي ضمنها سبحانه وتعالى لهم، رغم كفرهم، لكون التكليف مبني بالأساس على حرية الإرادة المسؤولة. وضمن هذا الحبل يجرى تقرير الإسلام لهم الأمان وذمة الله ورسوله والمؤمنين، إن هم قبلوا الدخول في السلام الإسلامي بالكف عن العدوان على المسلمين^(١).

وتبين آل عمران أن الكفر ليس نقطة، بل هو بمثابة متصل. فقد يوجد في الصف المسلم منافقون، يرتكبون أعمالاً جسيمة من قبيل: النفاق، وادعاء العجز عن الدفع أو الجهاد في سبيل الله، والعودة، والإرجاف والتشكيك، والترويج لدعوى أن في القعود نجاة من الموت أو القتل. ورغم كل تلك المخالفات الجسيمة، نجد الله تعالى لا ينعتهم بالكفر، ويثبت لهم بما بقوا عليه في ظاهرهم رغم مخالفته لباطنهم، أنهم يومئذ أقرب للكفر منهم للإيمان. يقول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ، الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبًا فَادْرُؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٦٧-١٦٨).

بل إن من علامات هامشية الجزاء الدنيوي على الكفر ذاته، أن الله تعالى أعطى للكفار، ما استلزم تحذيره سبحانه للمؤمنين من الاغترار بتقلبهم في البلاد، والتبنيه، إلى أنه لولا رحمته بالمؤمنين، لأعطاهم ما هو أكثر من ذلك مما يبتليهم به في هذه الحياة الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ

الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ الْمُهَادُ ﴿٣٣﴾ آل عمران: ١٩٦-١٩٧). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف: ٣٣).

وفي سورة النساء نجد ضمن الجزاء على الكفر تمني من مات عليه أن تسوى به الأرض. ونشهد حالته وهو يقر على نفسه أمام ربه يوم الدين بكل ما جناه على نفسه في حياته الدنيا. يقول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا، يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤١-٤٢). ومن الملاحظ في هذه السورة الكريمة أن أمر الله تعالى للمؤمنين بالجهاد في سبيله، جاء مشفوعا ببيان العلة وهي كف بأس الذين كفروا عن المؤمنين. يقول الله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ (النساء: ٨٤).

ومن سمات النموذج اليهودي المنعوت بالكفر، التي بينها هذه السورة الكريمة: تحريف الكلم عن مواضعه، وسماع المصر على المعصية، والإيمان بالجبت والطاغوت، وتركية النفس بالباطل، وحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، والافتراء على الله، وإرادة التحاكم إلى الطاغوت، والولاية للشيطان والقتال في سبيل الطاغوت، والتردد بين الكفر والإيمان، ثم الانتهاء إلى الثبات على الكفر، والزيادة فيه^(١).

وتجلى هذه السورة الكريمة نموذج نوعية نعتهم القرآن بوصف

(١) النساء: ٤٦-٥١، ٦٠، ٧٦، ١٤٠.

(الكافرون حقاً)، وهم: الكافرون بالله ورسله، الراغبون في التفريق بين الله ورسله، الداعون إلى الإيمان ببعض الرسل والكفر ببعض الآخر. ومرة أخرى، نجد أن الجزاء المنصوص عليه عقب بيان سمات هذه النوعية، مقتصر على العذاب المهين الذي أعده الله تعالى لهم. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١).

ومن علامات الموصوفين بأنهم الكافرون حقاً: مطالبة النبي بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وبأن يروا الله جهرة، واتخاذ العجل، ونقض العهد والكفر بالله، وقتل الأنبياء بغير حق، والقول بأن قلوبهم غلف، والبهتان في الافتراء على مريم، والزعم بقتل المسيح عيسى بن مريم، وأكل أموال الناس بالباطل، وتأليه المسيح، والغلو في الدين بغير الحق^(١).

ومرة أخرى لا يرد مع كل هذه الأوصاف التي يصعب تصور وقوع مسلم فيها، اللهم إلا على سبيل الاستثناء الذي لا يقيم قاعدة، ذكر لجزاء غير المسلمين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ، إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (النساء: ١٦٧-١٦٨).

ومرة أخرى يعزز التحليل السياقي لسورة المائدة الفرضية محل البحث، بأن الجزاء على الكفر ذاته محصور في جزاء الله تعالى لأهله، وليس لأحد غيره على الإطلاق. ومن الشواهد على ذلك في هذه السورة الكريمة: النهي عن

الاعتداء حتى على الكفار الذين صدوا المؤمنين عن الحرم. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢). والجزاء الذي يندر الله تعالى به من يكفر بالإيمان هو ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٥). وفي مواجهة تبديل فريق من بنى إسرائيل إيمانهم كفرا، نرى النص القرآني يرتب جزاء عليهم من فعل الله بهم، بإغراء العداوة والبغضاء في صفوفهم، ويكونهم في الظاهر على قلب رجل واحد وفي حقيقتهم فإن قلوبهم شتى. يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ، فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة: ١٢-١٤). ويقول سبحانه: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: ١٤). ومن الجزاء الثابت لهم أنه لو حيز لهم ضعف الدنيا بحذاقها، ما نفعتهم يوم القيامة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٦).

وتجلي هذه السورة الكريمة خصال صنف تسميه: المسارعين في الكفر. ومن خصاله: الإيمان بالأفواه والكفر بالقلوب، الحرص على السماع للكذب، وتحريف الكلم عن مواضعه، وترويج الكذب والتحذير من اتباع



الحق، وأكل السحت، واتخاذ الدين الإسلامي عامة والصلاة بخاصة هزوا ولعبا، والنفاق مع الإصرار على الكفر في قرارة أنفسهم، والمسارة في الإثم والعدوان وأكل السحت، والطعن في الذات الإلهية، والزيادة في الطغيان والكفر رداً على ما تنزل على محمد من الوحي، والوقوع في الاستهزاء بالرسول وتكذيبهم، والطعن في الدين والزعم بأنه من أساطير الأولين . ومرة أخرى، نجد الجزاء هو: الخزي في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة، وإلقاء العداوة والبغضاء بينهم، وبغض الله لهم لسعيهم في الأرض بالفساد، والوعد الإلهي للمؤمنين بإطفاء كل نار حرب يسعونها، وتوجيه النبي بأن لا يأسى عليهم، والإخبار بأنهم ظالمين محرمة عليهم الجنة ومأواهم النار، والحسرة على التفريط وحمل أوزارهم على ظهورهم يوم القيامة^(١).

المبحث الثاني بناء مفهوم مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في المنظور الإسلامي

غاية هذا المبحث هي بيان ماهية المسؤولية الاجتماعية، والمؤسسات الاجتماعية في المنظور الإسلامي، توطئة لبيان مسؤولية تلك المؤسسات في معالجة ظاهرة التكفير على هدي من الرؤية التي بينها في المبحث الأول لموقف الإسلام من مبدأ نفي الإكراه في الدين، على التفصيل التالي:

أولاً: المسؤولية الاجتماعية:

تقوم العلاقة بين الإنسان والوجود كله في المنظور الإسلامي على الحرية التوحيدية المؤسسة للمسؤولية الاجتماعية الجامعة لنوعيات ثلاثة من المسؤولية: المسؤولية الأخلاقية للذات الإنسانية العاقلة الفردية والجماعية وفق المعيارية الإسلامية القائمة على منهجية مبينة للإرادة الإلهية، تفهم الجماعة في إطارها وتهتم بها، على محاور حفظ الكليات الخمس وما يرتبط بها: الدين والنفس والعقل والمال والنسل. وعناصر هذه المسؤولية الأخلاقية الإسلامية هي: الاختيار والإلزام والثقة، وترتبط بها المسؤولية الذاتية النابعة من استحضار رؤية الله تعالى ورسوله والمؤمنين لعمل الإنسان الفرد والجماعة، والمسؤولية القانونية الصادرة من خارج الذات الإنسانية والمتعلقة بالسلوك الظاهر دون الباطن. وتتشابك تلك المسؤولية في هذا المنظور الذي ينهى عن غياب الإمارة حتى في الاجتماع العابر في سفر لجماعة تتجاوز الفردين، مع عمليات الإدراك والتعاطف والتفسير والتقويم وتصور العمل الصالح ونتائجه وتنفيذه. وتتعلق تلك المسؤولية من نظرة للفرد ضمن جماعة بالضرورة، تعود به إلى جزم

النسب، متحركة به إلى الفصيلة والعشيرة والفخذ والبطن والقبيلة والشعب والجمهور، وأمة الإجابة، وأمة الدعوة^(١).

وتتأسس تلك المسؤولية على مجموعة أنساق تبدأ من العائلة الممتدة التي يناط بالرجل والمرأة في ظلها القيام بدور كوني ينتقل منها بكل خواصه (الجمع المتوازن بين الفردية والجماعية، والمساواة عدا في الاستثناءات التي تقتضيها الخصوصيات ولا يجوز التوسع فيها ولا القياس عليها، والتكامل بين الأدوار، والاستقلالية، والمشاركة بالحضور في كل ساحات الفعل الإنساني الأخلاقي)، إلى كل الأنساق المجتمعية الأخرى (الفصيلة، الفخذ، البطن، العشيرة، القبيلة، الشعب، الجمهور). ويرتكز مفهوم المسؤولية الاجتماعية المؤسس على التوحيد على ثلاث ركائز: الوعي بمنظومة القيم الإسلامية، والوعي بما ينبغي أن يكون، والوعي بما يمكن فعله في حدود الاستطاعة في الزمان والمكان المعينين^(٢).

ثانياً: المؤسسات الاجتماعية:

الخلافة خلافة أمة لا فرد، كل فرد فيها راع لغيره، وغيره راع له. والخلافة نظام له ثلاثة ركائز: الشريعة، والأمة، والأمانة المتمثلة بمنظومة

(١) د. السيد عمر، توجيه بحوث الجامعات الإسلامية لخدمة قضايا الأمة، ١٨-١٩ فبراير ٢٠٠٧، ضمن: مؤتمر توجيه بحوث الجامعات الإسلامية لخدمة قضايا الأمة، المؤتمر العلمي الأول لكلية التربية جامعة الأزهر بالاشتراك مع مركز الدراسات المعرفية بالقاهرة، ص ٣٧٥-٣٩٧. وحول مفهوم المسؤولية وأصول العدل في الإسلام، انظر: د. فضل محمد سلطح، المسؤولية السياسية بين الدولة والمواطن، دراسة تحليلية في فلسفة السياسة، الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ج ١ ص ٧٥-٨٧.

(٢) د. السيد عمر، النسق السياسي للأسرة في المنظور الإسلامي، ضمن مؤتمر: واقع الأسرة في المجتمع: تشخيص لأوضاع الحاضر واستكشاف لسياسات المواجهة، القاهرة كلية الآداب جامعة عين شمس ومركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٤، ص ٢-١٥، د. السيد عمر، الوالدية والتربية السياسية للأبناء في ضوء الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية، ضمن الجزء الثاني من أعمال مؤتمر: نحو والدية راشدة من أجل مجتمع أرشد، سوهاج: كلية التربية بسوهاج، مركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٤.

الرعاية المتبادلة لأوامر الله التكليفية بحرية مسؤولة. وأنساق الأمة بوصفها الفاعل في هذا المثلث تمثل متصلاً يبدأ بالفرد المكلف الراعى بداية لجوارحه، وهى راعية له، تليه الأسرة المسلمة، ثم الفصيلة، فالأفخاذ، فالبطون، فالعشائر، فالعمائر، فالقبائل، فالشعوب، فأمة الإجابة، فأمة الدعوة.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن الصحابة لم يبتكروا نظام الخلافة، بل اجتهدوا في مساقين هما: نصب رأس له، وتهيئة الأنساق الأخرى إما بتحسينها، وإما بإعادتها إلى جادة الإسلام وصراطه المستقيم. فعند وفاة النبي ﷺ، كان المفتقد من نظام الخلافة هو رأسها فحسب، إذ كانت الأنساق الأخرى قائمة، بوجود: الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، وأهل الحل والعقد والشورى، والمهاجرين والأنصار بوجه عام، وعمال النبي ﷺ، على الصدقة، وعلى الأقاليم، والجيش الإسلامي، في ظل ترتيبات المسؤولية الجماعية الفرعية والعامّة المؤسسة على عهد المدينة.

وبالجملة، كانت هناك مؤسسات مجعولة من صنع الله تعالى، إلى جانب مؤسسات مصنوعة تابعة من صنع الإنسان. وكانت هناك أمة إجابة قائمة على أمر الله تعالى وفق شريعة تقوم على منظومة من القيم العليا في مقدمتها الحرية التوحيدية والتدافع والنصيحة الشاملة، ونفي الضرر والضرار بالنسبة للدين والنفوس والعقل والمال والنسل، على نحو حر مسؤول، بالاجتهاد في رفع الواقع المعاش قدر الطاقة الإنسانية إلى المستوى الذى يدعو إليه القرآن وصحيح السنة النبوية، عبر الرعاية المتبادلة، والنصيحة والصبر والمصابرة، وإثراء الأمانة، بالحفاظ عليها من دواعى التضییع الكامنة والظاهرة بشتى صورها، وبتعزيز موجبات تجسيد الحياة الطيبة على الأرض.

ومقتضى مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو: قيام حالة مؤسسية

يصير كل إنسان في ظلها رقيباً على غيره من جهة، ومأموراً بالتعاون معه وإسداء النصيحة له من جهة أخرى. وأساس الأمر بالمعروف هو التوجيه. وأساس النهي عن المنكر هو التقويم. والمعروف هو كل قول أو فعل لا يتصادم مع مبادئ الشريعة الإسلامية. والمنكر هو كل فعل أو قول يصدر من مكلف أو من غير مكلف يتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية. وهو واجب حسب الاستطاعة على المؤمن العاقل الراشد القادر. ويدخل في مفهوم القدرة: التمكّن العلمى والحسى والإذن من أولى الأمر. ويتعين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن لا ينقب عن عورات الناس لأن في ذلك إفساداً لهم، بل يواجه المنكر الظاهر دون تجسس، ويتحرى دفعه بأيسر الطرق التي يمكن دفعه بها^(١).

ويرتبط مفهوم المسؤولية الاجتماعية بمفهوم الدور. ويمكن التمييز بين نوعيات فرعية عديدة للدور، من أهمها: الدور المعيارى (السلوك المتوقع كما تحدده منظومة معايير محددة)، والدور المتوقع (ما يعتقد القائم بالدور أن الآخرين يتوقعون منه القيام به، وما يعتقد هو أن الآخرين ملزمون به في المقابل تجاهه)، والدور الفعلى (سلوك القائم بالدور في الواقع سواء وافق المعايير أم خالفها)، والدور المتصور (رؤية الدور من منظور ذاتي لأطرافه)، والدور الخلاق (السلوك المنشئ لنموذج تطبيقي للدور المعيارى في أرض الواقع)، والدور المتبادل (دور أصحاب المكنات والمراكز الاجتماعية المترابطة)، والدور المكتسب (الدور الذي يتعلمه الفرد من غيره باختياره لنفسه، أو باختيار الآخرين له)، الدور الفطري الموروث (الدور التلقائي الذي يحصله المرء بواقعة

(١) د. رمضان على الشرباصى، النظريات العامة في الفقه الإسلامي، الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة

للنشر، ٢٠٠٢، ص ٢٨٨-٣٠٣.

مولده^(١).

وتناغم الدور رهن بالتوافق بين توقعات أطرافه وتصورهم له وتقبلهم له وتحمسه واستعدادهم للتعاون معا من أجل إنجازهم من جهة، ووضوح الدور المعيارى والتناغم بين الثقافة السائدة والثقافات الفرعية في أرض الواقع، ومدى انضباط الدور الوظيفي ووجهته: هل يتمثل الدور الواقعى أم المعيارى، أم المتصور، أم مزيج منهما؟ ومدى الانسجام بين الناظم المعيارى، والناظم الموضوعى (معطيات بيئة الدور الطبيعية والاجتماعية والثقافية)، والبعد الذاتى (رؤى وتصورات أطراف الدور)^(٢).

وليس من متسع بهذه الدراسة للدخول في تفصيلات الفضاء المعريف لمفهوم دور الأمة بمختلف مؤسساتها. ونكتفي هنا بالقول بأن الدور وظيفة أو واجب بين بشر، يترتب عليه حركة تؤدي إلى خروج شئ من الكمون إلى الوجود في زمان ومكان معينين. فالدور مفهوم علاقى هادف حركى مقصود، تراكمى، بمعنى أنه يؤثر ويتأثر في الواقع، ويرتبط ببناء اجتماعى وبتفاعل اجتماعى له غايات، ويخضع لمعايير، ويرتبط بتوقعات ومراكز. وهو في التحليل الأخير المظهر الحركى لمنظومة الحقوق والواجبات المتبادلة بين أطرافه.

والكل ضمن أنساق الخلافة: راع، وكل راع مسؤول عن رعيته. فالإمام راع مسؤول عن حفظ الشريعة، وهو نظام للأمة وأساس لاجتماع الكلمة. والرجل راع لأهله بسياسة أمورهم وتوصيل حقوقهم إليهم. والمرأة راعية لبيتها

(١) عبد الهادى الجوهري، معجم علم الاجتماع، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠، ص٩٦-٩٧. د.محمد علي محمد (وآخرون)، المرجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥، ص ٣٩٠-٣٩٥.

(٢) د.سامية حسن الساعاتى، الثقافة والشخصية، بحث في علم الاجتماع الثقافى، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت بجامعة عين شمس، ١٩٨١، ص ٢٣٤-٢٤٠.

بتدبير أمره وتربية الأبناء. والخادم حافظ مؤتمن على ما تحت يده من مال سيده. وكل إنسان راع وحاكم بقدر درجة مسؤوليته وفي حدود مقتضياتها. وكل راع مسؤول عن استرعاه الله عليهم، حفظهم أم ضيعهم. وجواب المسألة الذى يدعو الإسلام كل راع إلى إعداده هو: أعمال البر^(١).

وفي تحليل عميق لخصوصية المؤسسات الاجتماعية في المنظور الإسلامي يربط الفاروقى رحمه الله بين أركان الإسلام والمؤسسية، ويعتبر تلك الأركان ذاتها مؤسسات، ثم يجعل الأسرة نواة لكافة المؤسسات المفعولة التي هي من صنع الله تعالى، والمصنوعة التي هي من صنع الإنسان، على النحو التالي بيانه:

١- الأسرة: مؤسسة إسلامية تقوم على عقد اتفاقى، ولا تقوم على نواة جامعة لزوج وزوجه وأولاده، بل على عائلة ممتدة تضم الآباء والأزواج والجدود والجندات والأعمام وذرائعهم، وهى المؤسسة الأهم بالنسبة لبنية الأمة، كونها محاطة بأدق تنظيم وأوسع تفصيل لمنظومات العلاقات بينها، وأنساق الرعاية المتبادلة في سياقها، ومنظومات الحقوق والواجبات التابعة منها، بما فيها نظام التوارث والوقف الأهلى. وفي محاكاة لها يقدم الفاروقى تصورا لمؤسسة العروة الوثقى المبنية على المسلم العامل والعروات الوثقى والأسر المسلمة، ضمن تصور لاستعادة مفهوم الأمة وروحها^(٢).

٢- المسجد ودور التعليم والوقف: المسجد مؤسسة جامعة للتعليم المستمر، في أحضانها نشأت دور التعليم بما فيها الجامعة. وهو مركز للتشاور وللدعوة، يعتمد على الوقف في تحقيق استقالته واستقلالية المؤسسات

(١) سليمان الجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، وبهامشه: تفسير ابن عباس، القاهرة: المطبعة العامرة، ١١٩٦هـ، ج ١، ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) انظر الفصل التاسع من: اسماعيل الفاروقى، التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة، مرجع سابق.

النابعة منه والتابعة له.

٤- مؤسسة الحارة: مركزها المسجد، ويتبعها السوق، وتحقق إمكانية الجمع بين التواصل الوثيق بين سكانها، وغياب الشرطة، وبين يسر تحقيق الخصوصية.

٥- مؤسسة الحسبة: مؤسسة تقام في كل محلة وفي كل حاضرة، تقوم على مبدأ المبادرة في تحقيق مصالح الأمة في كل المجالات ودرء الضرر. ويتسع دورها ليشمل حماية حقوق الإنسان والحيوان والجماد، ورعاية السوق والخدمات العامة، وتفقد المؤسسات الرسمية وغير الرسمية وضبط سلوكها وفق الشرع. وتتمتع تلك المؤسسة بالجمع بين عنصر المبادرة وتلقى الشكاوى، وبين السلطة القضائية وسلطة الضبط القضائي، الكفيلة بسرعة تدارك الانحرافات.

٦- مؤسسة الدولة: هي بمثابة مظلة للمؤسسات التي هي أدنى منها ونظام لأمر الأمة في الداخل ومع الخارج، وهي أداة للتغيير الأخلاقي وللرعاية والنصيحة الشاملة، ونفي الإكراه في الدين. وهي تنفتح في إقامتها للسلام الإسلامي، لكل من يقبله، وتؤسس التنافس بين البشر على اعتبار هوية الإنسان الفرد والجماعة مرتبطة بدينه وليس بأي ناظم آخر، وتقيم تلك المنافسة بين أنساق مجتمعية متمتعة بحريتها الدينية، ومتنافسة في الخيرات على أساس من الكلمة السواء المحققة لحرية العباد في مواجهة بعضها البعض، وعدم التمييز في الحقوق والواجبات بينها على أي أساس غير إنسانية الإنسان.

٧- مؤسسة الأخوة في الدين، والأخوة في الإنسانية: أساس هذه المؤسسة هو اعتبار كل إنسان واحد من اثنين: أخ في الدين، أو أخ في الإنسانية، وانقسام البشرية بالتالي إلي: أمة إجابة وأمة دعوة. وهذه المؤسسة تشمل

عدة دوائر مترابطة: الأفراد، الأسر، الجيران، جماعة المهنة أو الحرفة، القرية، المدينة، الأمة، الجنس البشري^(١).

٨- المؤسسات المصنوعة: تشمل كل المؤسسات التي أنشأها الإنسان كالسلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية، والشرطة والجيش، والفعاليات الفكرية، وأهل الحل والعقد، والأحزاب السياسية، والنقابات المهنية والعمالية، وجماعات الضغط وجماعات المصالح، وجماعات الرفاق، وقنوات الاتصال والدعاية والإعلام، والمؤسسات الدينية كالأزهر والمؤسسات الصوفية والدعوية والاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، والمركز العالمي للوسطية، واتحاد جامعات العالم الإسلامي، والمؤسسات المعنية بالتمكين للمرأة، والمنظمات الدولية والإقليمية، والمؤسسات الثقافية والحقوقية في العالم الإسلامي مثل: منظمة المؤتمر الإسلامي، واليونسكو والإيسيسكو وألكسو ومنظمة العفو الدولية وغيرها من المنظمات المعنية بحقوق الإنسان، وبالشباب وبالطفولة، وبمختلف الشؤون الإنسانية العامة.

(١) د. اسماعيل الفاروقى، لوس لمياء الفاروقى، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، الرياض: مكتبة العبيكان، والمعهد العالمى لفكر الإسلامى، ١٩٩٨ ص ٢١٧-٢٤٥.

المبحث الثالث

العلاج المؤسسي لداء التكفيريين الواقع والمأمول

موضوع هذا المبحث هو: وصف الحالة الراهنة للتصدي لظاهرة التكفير، على ضوء تحديده لمفهوم المسؤولية الاجتماعية للمؤسسات الاجتماعية وفي مقدمتها الأسرة، ثم صياغة تصور لمعالجة أكثر رشدا وأكثر استلهاما لرؤية الإسلام لمبدأ نفي الإكراه في الدين.

الإنسان هو المخلوق الوحيد صاحب الفعل الحر، زوده الله تعالى بالفطرة الصحيحة، القابلة في ذات الوقت للعطب بفعله أو بفعل غيره، وأمده في المقابل بأسباب استعادتها ممثلة في الوحي والعقل والحواس والقدرة على الفهم والحدس، فضلا عن منظومات الرعاية والنصيحة والتدافع، والسنن الكونية. والإنسان مكلف مسؤول. والمسؤولية مرتبطة بالاستطاعة الحرة. وهو مكلف بمعرفة الخير ممثلا بالإرادة الإلهية، وقادر على ذلك، ومأمور بتجاوز أمر نفسه إلى غيره، وبالوفاء بالعقود في ظلال الحرية التوحيدية والمسؤولية والسلام الأخلاقي^(١).

ولعله قد تبين لنا في المبحثين السابقين أن داء التكفير ظاهرة ذات طابع جمعي مؤسسي، يستعصي علاجها سواء على مستوى الوقاية منها أو على مستوى علاج انحرافات غير العنيفة، وكذا انحرافات المسلحة بجهود فردية، أو حتى بجهود مؤسسية مبعثرة. فجوهر المسؤولية المؤسسية كما تبين في المبحث الثاني هو الحرية التوحيدية القائمة على بذل غاية ما في الوسع من

(١) د. اسماعيل راجي الفاروقى، التوحيد... مرجع سابق، ص ١٧-٢٠، ص ١٠٩-١٢٧، ص

الصبر والمصابرة على ثلاثية: الرعاية المتبادلة، النصيحة الجامعة، الأمر بالمعروف و التناهي عن المنكر^(١). وسنشير بإيجاز في حدود المساحة المتاحة لهذه الدراسة، إلى خطوط عريضة لواقع المعالجة المؤسسية لهذا الداء، وما ينبغى أن يكون عليه، على النحو التالي:

أولاً: واقع المعالجة:

التكفير في جوهره ظاهرة نابعة من انحراف فكري، يرتبط بالأساس بخلل في الرؤية الكلية للخالق، وللإنسان والوجود، وما بعد الحياة الدنيا. ومفتاح علاجه هو: تصحيح المفاهيم، واستعادة الفطرة التي فطر الله الناس عليها بفكر صحيح نابع من معيارية منضبطة، بتحرير مفاهيم مركزية في مقدمتها: الدين، والأمة، والإنسان، وانساق العلاقة بين الإنسان وخالقه، وبينه وبين بنى الإنسان من جهة، ومع بقية الموجودات من جهة أخرى، مما لحق بها من غبش وتحريف. ومن أهم قسّمات صورة الواقع الراهن لمعالجة ظاهرة التكفير:

١- التشرذم المؤسسي: يعانى واقفنا الإسلامي المعاصر من غياب مؤسسة مظلة جامعة تنسق بين رؤى واجتهادات وسلوكيات كل نسق مؤسسي من جهة، ناهيك عن وجود مثل تلك المؤسسة الجامعة على مستوى الأمة الإسلامية ككل من منتصف عشرينيات القرن العشرين حتى الآن. ويفتح ذلك الباب واسعا أمام غياب التنسيق بين مؤسسات الأمة، فضلا عن تمكين قوى الخارج، من التلاعب ببعضها لخدمة أهدافه المعلننة

(١) هذا المفهوم مستقى من القرآن الكريم. يقول الله تعالى في معرض الإشارة إلى ما أصاب اليهود من انحراف ومن سوء المصير: {كَأَنُؤا لَأَنتَنَاهُؤنَّ عَن مَّنْكَرٍ فَعَلُؤهُ لَبِئْسَ مَا كَانُؤا فَعَلُؤنَّ} المائدة ٧٩. وهذا المفهوم متضمن للنهي عن المنكر. إلا أنه يضيف إليه حقيقة أن هذا النهي لا يتم من طرف واحد، بل إن كل طرف ينهى الآخر عن المنكر. وهذا المفهوم يقع في عمق المؤسسية.

والخفية^(١).

٢- سيادة حالة الطوارئ يهيمن على العالم المعاصر سواء الغربي أم العربي هاجس ما يسمى بالظروف الاستثنائية، وكيفية ترتيب العلاقة بين الفرد والسلطة في ظلها. وفي هذا الصدد يتربع نظام الأحكام العرفية بما يتضمنه من نقل السلطة من المدنيين إلى العسكريين، وتوسيع نطاق سلطات أجهزة الأمن، وتمديد ولاية المحاكم العسكرية لتشمل مدنيين. وليس هذا النظام وليد بيئتنا بل هو وافد في الأساس من الخارج. وتعرف بلدان مثل فرنسا أربعة نظم لتنظيم العلاقة بين الفرد والسلطة في الظروف الاستثنائية، تضم إلى جانب نظام الأحكام العرفية، نظام سلطات حالة الحرب، ونظم الظروف الاستثنائية، وحالة الطوارئ. وتعرف بلد مثل مصر ثلاثة أنظمة لتلك الحالة هي: نظام الأحكام العرفية، ولوائح حالة الضرورة، واللوائح التفويضية^(٢).

٣- التشويه والتشبيك: يجمع الغرب حالياً بين تشويه صورة كل ما هو إسلامي ورميه بالإرهاب، مع السعى إلى صياغة إسلام على المقاس الغربي، والاجتهاد من أجل التشبيك والتتميط والتوجيه الثقافى للعالم كله. ومن المؤكد أن بناء الأوطان لا يتم أبداً على أيدي الغزاة ووفق

(١) أحمد خلف، مؤسساتنا الدينية بين المأسسة والتسييس والتدويل، ضمن: الأمة ومشروع النهوض الحضارى، حال الأمة عام ٢٠٠٨، أمتى في العالم، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٩، ج ١ ص ١٨٢-٢٠٧.

(٢) د. إيهاب طارق عبد العظيم، علاقة الفرد بالسلطة في ظل الظروف الاستثنائية، القاهرة: مؤسسة الطوبجى، ٢٠٠٥، ص ٦٥-٧٩، ص ٨٦-١٠٩. وأهم ما في هذه الدراسة هو ما خلصت إليه من عدم فاعلية الضمانات الكائنة في تلك النظم بالنسبة لمنع تفول السلطة على الفرد باستغلال تلك الحالات الاستثنائية، والتوسع فيها، وتطويل أمدها، بحيث لا تصير حالة عابرة، بل تتحول إلى حالة شبه ثابتة. انظر هذا المرجع ص ٣٥٥-٤٠٥.

الأجندات الخارجية. فالقوى الخارجية تعرف كيف تهدم، ولكنها لا تعرف كيف تعيد بناء ما هدمته، ناهيك عن اهتمامها بذلك من الأساس. من هنا يتعين التركيز على تعميق ثقافة البناء لا الهدم في صفوف أمتنا^(١). وقد يكون من المفيد الإشارة بشئ من التفصيل هنا إلى تقرير موسع من ١٨٣ صفحة أصدرته مؤسسة راند الأمريكية عام ٢٠٠٧، تحت عنوان: بناء شبكات المسلمين المعتدلين، ترد فيه موضوعات ذات عناوين دالة بذاتها من قبيل: تحدى الإسلام الراديكالي، والحلفاء المحتملون، وخريطة طريق لبناء شبكات معتدلة في العالم الإسلامي، ودور المسلمين الأمريكيين وخبرة التشبيك في الوسط الإسلامي، وعملية انتقاء شركاء معتدلين، ومؤسسات بناء الديمقراطية، ورعاية منظمات ترويج الإسلام العلماني^(٢).

ولباب الصورة الإدراكية الأمريكية لداء العالم الإسلامي أنه يعاني في ذلك المنظور الغربي من رواج التأويلات الراديكالية للإسلام في كثير من مجتمعاته. والعللة الكبرى الكامنة وراء ذلك هي: انتشار الأنظمة السلطوية وضعف منظمات المجتمع المدني، مما جعل المسجد واحداً من بين ساحات قليلة للتعبير عن السخط الجماهيري من تردى الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأتاح الفرصة للراديكاليين الإسلاميين لطرح أنفسهم كبديل للأنظمة القائمة. ونجحت الحكومات السلطوية والراديكاليين الإسلاميين معا في تهميش

(١) د. محمد نصر مهنا، العلاقات الدولية بين العولمة والأمركة، الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٦، ٣٣٢-٣٣٨. وانظر في سمات عملية الأمركة وكيفية مواجهتها، ص ٣٧٥-٤١٣.

(٢) راجع فهرست التقرير: Angel Rabasa (et al), Building Moderate Muslim Networks, Rand Center for Middle East Public Policy, Santa Monica: , Rand Corporation, 2007, PP. XI- XIV

الإسلاميين المعتدلين وإسكاتهم. وسر تمكن الراديكاليين من تحقيق ذلك هو تميزهم على المعتدلين بأمور ثلاثة هي: التنظيم، واللجوء إلى العنف والقمع لفرض رؤاهم الدينية السياسية على الجماهير، والحصول على تمويل هائل لنشر ثقافة العنف والتطرف على مدى العقود الثلاثة الأخيرة. وهذا التفاوت في التنظيم والموارد هو السبب في تمكن الراديكاليين رغم كونهم أقلية من تحقيق نفوذ غير متكافئ مع وزنهم العددي في الشارع الإسلامي.

وفي المقابل يعاني المعتدلون من الافتقار إلى التنظيم والموارد فضلاً عن احتياجهم إلى الحماية من استهدافهم بالقمع لكونهم يمثلون بديلاً ممكناً أكثر مقبولية لدى الجماهير من كل من المتشددين والنظام الحاكم معاً. ومن هنا تأتي أهمية تشبيك الفعاليات الإسلامية المعتدلة. وبالنظر لعجز تلك الفعاليات عن القيام بذلك التشبيك بمواردهم الذاتية، فإن الولايات المتحدة تقوم بدور المحفز الخارجي لهم. وخبرة أدائها في الحرب الباردة توحى بقدرتها على لعب دور مهم في إنشاء فضاء واسع يعمل فيه المعتدلون المسلمون، والتوصل بالتعاون معهم إلى تطوير معيار واضح للشراكة بينها وبينهم.

ويتم انتقاء الشريك المراد توصيفه فرداً كان أم جماعة المستحق لوصف (إسلامي معتدل) باستقصاء أمريكي يرتئيه بثبوت تبنيه رؤية كلية ديموقراطية ليبرالية، تكشف عنها عملية فحص دقيقة مدارها هو الأسئلة العشرة المركبة التالية وتوابعها: ما هو موقفه الآني والماضي من ممارسة العنف ومن التسامح معه؟ هل يتبنى الديموقراطية؟ إن كانت الإجابة بنعم: هل يوصفها بمواصفات الديموقراطية الليبرالية الفردية؟ هل يؤيد حقوق الإنسان كما هو متعارف عليها في الغرب؟ هل يرى إمكانيةً

لقبول أية استثناءات على مبدأ حرية العقيدة، وغيرها من حقوق الإنسان؟ هل يعتقد أن التحول إلى دين جديد شأن فردي؟ هل يعتقد بوجود تطبيق الدولة للحدود الجنائية الواردة بالشريعة الإسلامية؟ هل يعتقد وجوب تطبيق الأحكام المدنية الواردة بالشريعة الإسلامية، أم يفضل بدائل علمانية غيرها، أم يقبل بتنظيم الشورى الإسلامية بقانون علماني؟ هل يؤمن بالمساواة التامة بين أعضاء الأقليات الدينية غير المسلمة وبين المسلمين في الحقوق، وهل يؤمن بحق عضو أقلية دينية في شغل منصب سياسي رفيع في بلدان ذات أغلبية مسلمة؟ هل يؤمن بحق الأقليات الدينية في أن يؤسسوا ويديروا مؤسسات دينية خاصة بهم في بلدان ذات أغلبية مسلمة؟ هل يقبل نظاماً قانونياً مؤسساً على مبادئ قانونية غير دينية الأصل؟

ولا تكفي تلك الأسئلة العشرة المركبة للفوز بصفة (الإسلامي المعتدل وفق الميزان الأمريكي)، بل يلزم أيضاً طرح أسئلة أخرى في تدقيق الحالة، تشمل فحص: شبكة علاقات ذلك الفرد أو تلك الجماعة مع الفاعلين السياسيين الآخرين، والعواقب والآثار المحتمل ترتبها على تلك العلاقات. وهل في شبكة علاقات ذلك الشريك المحتمل صلات مع جماعات راديكالية، أو منتظمة في تحالفات مع منظمات تمويل أو بحوث راديكالية؟^(١)

٤- اختطاف المفاهيم الإسلامية وتمييعها: تتعرض المفاهيم الإسلامية لعملية تشويه واختطاف غير مسبوق في عصر الفضائيات والإنترنت الراهن. فلقد حصر باحث خمسة ملايين وثلاث مئة ألف مقالة حول مفهوم

التجديد على موقعى ياهو وجوجل على سبيل المثال، على نحو يغيب معه على حد قول المستشار طارق البشرى ميزان التفاعل وحراس الحدود داخل الفكر. وتتعرض مفاهيمنا لعملية تسميم تعانى في ظلها عقولنا من سباعية: الوحل والكوابح والصدأ والعجز والمتاهة والإنهار، وتغيب سباعية الاستقامة المفاهيمية: العقيدة الدافعة، والشرعة الرافعة، والقيم الحاكمة، والأمة الشاهدة الجامعة، والحضارة الفاعلة، والسنن القاضية، والمقاصد الحافظة^(١).

وفي غمرة الفضائيات، وما يسمى: الدعاة الجدد^(٢)، نصادف حالة غير مسبوقه من الفوضى المفاهيمية التى لا تحمد عقباها، وتندثر بما هو أسوأ في المستقبل، إن لم يتم ضبطها^(٣).

وفي حين تدور مسائل العقيدة على الإيمان والكفر، وتدور مسائل السياسة الشرعية على الخطأ والصواب، الذى ينال المجتهد المصيب في إطاره أجرين، وينال المخطئ أجرا، نجد واحدا من الدعاة الجدد يكتب رسالة بعنوان (القول السديد في أن دخول المجلس النيابى يناهى التوحيد).

- (١) محمد كمال محمد، التجديد رؤى وتجارب، ضمن، أمتى في العالم، ٢٠٠٩، ج١، ص ٥٣-٥٤.
- (٢) المراد بهذا المفهوم هو من باتوا يخاطبون الجماهير الإسلامية دون أن يكون لديهم تكوين فقهي بمؤسسات علمية. وبالتالي ينقصهم التخصص. انظر دراستنا: د. السيد عمر، دور أئمة المساجد في التنشئة السياسية، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، تحت النشر.
- (٣) تبين لنا في دراسة أعددها من قبل، أن خطاب الدعاة الجدد يشوه منظومة الجزاء في الإسلام، ويقوض المفاهيم على نحو غير مسبوق. وتكفي الإشارة هنا إلى ترويجه لمفاهيم مثل: مسجد البدعة، وبيئة البدعة والدعوة لعدم دفع الكلب عن الغنم، والاستعانة بالله لتحقيق ذلك، ونفي العصمة عن الأمة، بادعاء أن العصمة دفتت مع النبى، والتزهيد في الدنيا ووصفها بأنها سجن المؤمن، والدعوة إلى معالجة المرضى بالرقية لا عن طريق الطبيب، والزعم بأن موسى عليه السلام فقاً عين ملك الموت، والزعم بأن أحدا لن ينجون لسانه حتى لو بلغ مقام أبى بكر الصديق. انظر: د. السيد عمر، دور أئمة المساجد في التنشئة السياسية، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، تحت النشر، ص ١٣١-١٣٣.

ويبالغ ذلك الخطاب في توظيف مفهوم (كل بدعة ضلالة) على نحو يستدعى إعادة تحريره، فضلا عن الخلط بين السنة التي هي بيان للقرآن اعتنى السلف والخلف بتمحيصها وبسندها، وبين السير والمغازي التي تساهلوا في إسنادها وروايتها.

وتحتاج الأمة بشدة إلى إعادة ضبط دور أجهزة التنشئة والإعلام في التعامل مع المفاهيم الإسلامية^(١)، وإلى سبر أغوار مفهوم الناسخ والمنسوخ الذي أحاله فقهاء التقليد المتأخرين عما كان عليه لدى السلف الأول^(٢). ونحن بحاجة إلى إعادة النظر في مقولة (لا اجتهاد مع النص) لإعادة إخراج الإنسان السوي، والأمة الأمرة بالمعروف الناهية عن المنكر، بمنهج إلهي المصدر، إنساني الموضوع يحكم شؤون إنسان مخلوق لخالق واحد في عالم مخلوق لذات الخالق، هو مؤتمن فيه وفق شروط الاستخلاف استعدادا للقاء الله والحساب.

فالنص يحتاج لاجتهاد في فهمه وفي إنزاله على الواقع، وفي اختيار أنسب السبل لتطبيقه، في عالم شاء الله تعالى أن يخضع لسنن كونية، وجعل الوسطية هي علامة الأمة المسلمة في تعاملها مع نفسها ومع الوجود كله^(٣).

مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

(١) راجع في الرد على ذلك: د. يوسف القرضاوي، من فقه الدولة في الإسلام، القاهرة: دار الشروق، ص ١٩٥-٢٠٠، خالد السعد، خطب الشيخ القرضاوي، القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٣، ص ١٤٥-١٧٠.

(٢) راجع: د. السيد عمر، تقويم إسلامية المعرفة في ربع قرن، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، دراسة قيد النشر.

(٣) من الموضوعات الأولى بتركيز البحث العلمي عليها في هذا الصدد التعمق في الفرضية التي بناها الدكتور محمد عمارة التي تبين من فحصه الأولى لها أن إعادة قراءة تراثنا الإسلامي بعيوننا وبمعيار الوسطية الجامعة ستكشف عن أن كثيرا مما اعتبر تاريخيا خلافا بين المفكرين المسلمين هو في جوهره مسالك للوصول إلى نتيجة واحدة. انظر: د. محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٨، ص ١٨-٤٥.

وفي هذا السياق يؤسس هذا المفكر الإسلامي لما يسميه: مؤسسة الذمة، المعنية بحقوق المواطنة لغير المسلمين، وإجماع الأمة على نفي التكفير بالتأويل الخاطئ، وضرورة التمييز بين غير المسلمين المتعاهدين معهم، والمتحيزين ضدهم المتكالبين عليهم، ويبنى مفهوم الوسطية الجامعة على عشر مرتكزات هي: رفض الجمود على ظاهر النصوص والتقليد، وفهم الدين على طريقة السلف الأول قبل ظهور الخلافة، واستحضار منظومة الصلاح والإصلاح بالإسلام، ونبذ الإفراط والتفريط، والجمع بين النقل والعقل، والوعى بسنن الله الكونية، والشورى، والوعى بجمع الدولة الإسلامية بين صفتي: المدنية والإسلامية، والعدالة الاجتماعية، وإنصاف المرأة، وتحديد فضاء عملية إصلاح المؤسسات السياسية، على ركيزتي: الهداية المستمرة للإنسان في أداء دور الخلافة في الأرض، ورعاية الأسوة الحسنة المستمرة الشاملة للأمة كأساس لفاعلية مؤسساتها. أو بتعبير آخر، الربط بين الهداية والعهد مع الله، بحيث لا ترتبط مشروعية أى فعل إنساني ابتداءً، بذاك الفعل، بل تمتد إلى ما يؤول إليه من آثار^(١).

(١) انظر د. محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، ضمن: أمتى في قرن، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ج ٢. و انظر أيضا: د. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، في النظرية السياسية من منظور إسلامي، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ص ٢١٩ - ٢٢٠، ٢٤٨ - ٢٤٩، ٢٥٨ - ٢٦٤. وحدد سيد قطب رحمه الله ستة معالم للامة الوسط الشاهدة على الناس هي: الوسطية في التصور والعتقاد، والوسطية في التفكير والشعور، والوسطية في التنظيم والتسيق، والوسطية في الارتباطات والعلاقات، والوسطية في الزمان والمكان، والوسطية في الزمان. راجع تفصيلات ذلك في: سيد قطب، في ظلال القرآن، سورة البقرة، الجزء الثاني، منبر التوحيد والجهاد، ص ١٤٠-١٤٣. ومن المعالم التي رصدناها لهذه الوسطية في دراسة سابقة لنا: الحرية التوحيدية بوصفها أساس التكريم الإنساني - الحياء الحق بالتخلق بالقرآن الكريم بحفظ اللسان والجوارح والتخلي بلباس التقوى الذي لا موضع معه للإفراط ولا للتفريط - التربية على =

وفي ظل تلك الوسطية تتلاقى روافد التنوع الإنساني، ويغيب التعصب والغلو والإفراط والتفريط، والثنائيات المفتعلة، وتتعانق الحرية مع المسؤولية، والسببية مع سمو الإرادة الإلهية، ويغدو الإنسان كائنًا عابدا حرا مسؤولا، لا هو بسيد الكون، ولا هو بالكائن الحقير المتلاشي، وينتهي وهم اعتبار النص مقابلا للإجتهد^(١). فالنص يحتاج لاجتهاد في فهمه لإنزاله على الواقع، وفي الموازنة بينه وبين نظائره، وفي فهمه في سياق الكل القرآني، وفي التيقن من شروط تفعيله. وبهذه الوسطية الجامعة تتساند القومية والوطنية والجامعة الإسلامية، ويتحقق للإنسان الانتماء الفعال والفعل المنتمي^(٢).

٥- تعثر مساعى التقريب بين الشيعة والسنة: رغم كون الخلاف بين السنة والشيعة في أصله خلافا حول فروع، وذا طابع تاريخي، وكان من المفترض أن يتم طوى صفحته خاصة أمام التحديات المشتركة الراهنة من جهة، وفي ظل جهود المراجعة في الصف الشيعي باتجاه تحريم تكفير المسلمين بعضهم بعضا، وصيانة الدم والمال والعرض المسلم، بل الإنساني، والكف عن سب الصحابة، فإن مؤشرات إخفاق تطل برأسها من آن لآخر، وتدخل الأمة معها في تحذيرات من بعض رموز علماء السنة

= مكارم الأخلاق - التربية على الوعي بالسنن الإلهية الكونية - التربية على الوعي بنسبية الكمال الإنساني وبقابلية الفطرة الإنسانية للانحراف وإمكانية استعادتها بالمراجعة والتوبة النصوح المتواصلة - التأكيد على أساسيات الكلمة السواء بين المسلمين وأهل الكتاب - التربية بعبارة الأسوة الحسنة وبسير الأولين - التربية الكوثرية القائمة على الرعاية والتكافل المتبادلين - الاستحضار الدائم للمحاسبة بمستوياتها الثلاثة المترابطة (معية الله تعالى الدائمة - رؤية صالح المؤمنين لعمل الفرد والجماعة - الوازع الضميري الذاتي)، - التيسير الملتزم بشرع الله. انظر: د. السيد عمر، التشيئة السياسية في المنظور القرآني، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية (دراسة قيد النشر).

(١) د. محمد عمارة، معالم المنهج....، مرجع سابق، ص ٦٦-٩١.

(٢) المرجع السابق ص ٩٣-١٢٢، ص ١٦٤-١٦٨، ص ٢٢٧.

بوزن القرضاوى من مساع شيعية للمد في المجتمعات السننية، يرد عليها بحروب كلامية، بل بما سمي بالحرب الإليكترونية السننية الشيعية^(١).

٦- اعتلال بيئة البحث العلمى المعاصر: يرتبط استفحال ظاهرة التكفير في الواقع المعاصر باعتلال بيئة البحث العلمى، والإخفاق في وضع جدول أعمال نابع من هموم أمتنا نبني به بيتنا في أرضنا لا في أرض الغير. وسبق لى أن رصدت عشرة مؤشرات لاعتلال بيئة البحث العلمى المعاصر تشمل: الاستفراق في الوافد، والهيام بالبحوث المتعجلة والتلغرافية الطابع الشبيهة بالوجبات الجاهزة، وتيه الهوية، والقراءة الأحادية للظواهر بتأثير التخصص الضيق، والإصابة بداء البحث للمؤتمرات والمجالات المحكمة التى لا تنفتح عليها العامة، وغلبة التقويم المادى على أخلاقيات الاحتساب العلمى والإحسان العلمى، وغياب تقاليد البحث الحر، والوقوع في أسر القراءات الضالة والرسالة الإعلامية المعوقة^(٢).

وتؤدى تلك البيئة إلى فرار الجماعة العلمية من تحمل المسؤولية واضطراب المعايير وسيادة موقف السلب والعزلة النفسية والتشكك والتردد في التفسير والتقويم^(٣).

وقد تفسر تلك البيئة السر في كون ظاهرة الجماعات التكفيرية، لم تفرز بحوثاً تأسيسية داخل الجماعة العلمية تجفف منابعها، وتستند إليها العناصر التى وقعت فيها في المراجعة. ومن الشواهد المؤسفة على ذلك أن

(١) وسام السويدي، التقريب بين السنة والشيعية، أمتى في العالم، ٢٠٠٩، ج١ ص ١١١-١٢٣.

(٢) د. سيد أحمد عثمان، التحليل الأخلاقي للمسؤولية الاجتماعية، القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٩٦، ص ٤٠-٥٩.

(٣) د. السيد عمر، توجيه بحوث التنشئة السياسية والاجتماعية في الجامعات، ضمن أعمال مؤتمر: توجيه بحوث الجامعات الإسلامية لخدمة قضايا الأمة، ٢٠٠٧ الزقازيق: كلية التربية جامعة الأزهر، ومركز الدراسات المعرفية، ج١ ص ٢٨٧-٢٩٧.

تخرج المراجعات من جانب الجماعات الإسلامية المتشددة من داخل السجون في مصر، وأن يجئ الاعتراف بارتكاب أخطاء بحق الأمة، والتوصل بعد حالة تيه وفتنة عمياء استمرت أكثر من ربع قرن، من القتل على الجنسية وعلى لون البشرة وعلى المذهب، وقتل من لا يجوز قتله، وتخريب الممتلكات، واستحلال أموال الغير بغير حق، من داخل السجون، وبعد مواجهات أمنية مديدة ومريرة ومدمرة لروح الأمة ومعنوياتها، غاب من نطاقها الفكر، وانتهكت فيها الحرمات من الجانبين.

ومن علامات مرض بيئة البحث العلمي في نظري أنه حتى حين خرجت تلك المراجعات، كان المعنى الأكبر بها تأييدا تارة، ورفضاً وتقنيدا وتشكيكا تارة أخرى، هو الجماعات التكفيرية داخل السجون وخارجها^(١).

٧- تاريخنا كتبه غيرنا: من بين أهم روافد الفكر التكفيري وزرع الشك والريبة في نفوس شباب الأمة أن تاريخنا كتب بيد غيرنا. وما كتب منه بأيدينا شابهت عيوب مفصلية سواء بالنقل دون تمحيص عن الآخرين، أو باختزال التاريخ في قمة السلطة في الدولة الإسلامية. ونحن بحاجة ماسة

(١) عبده إبراهيم، المراجعات طريق جديد للجماعات الإسلامية، أمّتي في العالم، ٢٠٠٩، ج ١ ص ٧٧-١٠٥. ولعل هذا المؤتمر العالمي يكون فاتحة لتدارك هذا الوضع وعدم الوقوف عند حد كونه تظاهرة فكرية عالمية في وصف تلك الظاهرة والبحث فيها، إلى رحاب بناء أطر مؤسسية تضع هذا الموضوع على رأس أجندة البحث العلمي في كل التخصصات، وعلى رأس أولويات التششئة على صعيد كل مؤسسات الأمة. وراجع: أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي، تحقيق: محب الدين الخطيب، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٩٩هـ. كما لا يخفى ما ألحقه المستشرقون من تزييف. = لتاريخنا. انظر في التفاصيل: د. نصر محمد عارف، في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل، هيردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤، ص ٩٠-٩٢، ص ٢٣٢-٣٤٣.

إلى إعادة كتابة تاريخنا بأيدينا، وبمنهاجية وبصيرة. فالتاريخ علم لا ينفصل عن الهوية ولا عن واقع الأمة. وتاريخ أمتنا تعرض لتشوهات بالغة الخطورة، ارتفع في ظلها زيد اللغو والغيبة على زبدة العبرة، وجرى تركيز غريب على البعد السياسي بمعناه المختزل المحصور في رأس السلطة السياسية في الدولة الإسلامية، على حساب الأبعاد المجتمعية والثقافية والاقتصادية.

وعانى العقل المسلم من التناقض بين تقويم أمم من منظور ديني، وتقويمها من منظور تاريخي. فرصد الحالة اليونانية والرومانية والفارسية من منظور ديني مغاير بشدة لما تقدمه المصادر التاريخية التي كتبت بيد الغرب عن أمجادها ووزنها في الحضارة الإنسانية، ومعايرة غيرها بها. ولم يقف الأمر عند القراءة المشوهة والمشوشة لتاريخنا على يد المستشرقين في العصر القديم والمستغربين في العصر الحديث، بل غاب عنها التوازن بين رؤية الفرد والجماعة والمجتمع والدولة والأمة. وبدلاً من بناء الظاهرة التربوية على الأصول الإسلامية ونماذج القدوة من الصدر الإسلامي الأول، وقعنا في محاكاة لفخاخ التمركز حول الذات، والظاهرية والنزعة الشككية^(١).

ثانياً: صوب واقع مأمول لمعالجة مؤسسية لظاهرة التكفير:

يعلّمنا الركن الأول من أركان الإسلام أن أساس الاستقامة هو التخلية ثم التحلية. وبالتالي فإن شرط التحرك نحو واقع مأمول في معالجة هذه الظاهرة

(١) د. زكريا سليمان، نحو منهج للتاريخ في إطار المنهجية الإسلامية، ضمن: د. أحمد فؤاد أبو باشا (وآخرون) المذهبية الإسلامية، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠١٠، ج ١ ص ٦١٥-٦٣٢. وانظر في المقابل ضمن نفس المرجع: د. عبد الرحمن النقيب، النماذج التفسيرية في النهضة الإسلامية، ج ٢ ص ٩٧٩-٩٨٥، د. جمال عبد الهادي محمد، د. وفاء محمد، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، المنصورة: الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٠.

هو البدء من تدارك عيوب الواقع السبعة السالف بيانها ، ثم البناء على ذلك عبر قنوات من أهمها :

١- الانطلاق من حاكمية القرآن ومن اعتباره بمثابة الجملة الواحدة: القرآن الكريم ناسخ لكل صور الوحي السابقة ومهيمن عليها. وهو وحده الميزان الذى ينبغي وصف ظاهرة التكفير، وابتغاء علاج مؤسسي ناجع لها استنادا إليه، وبمعايرة كل ما عداه به، في ضوء ما تعرض له الوحي السابق على القرآن من إقحام شروح إنسانية فيه، ومن تحريفه على نحو دفع أتباعه أنفسهم إلى التعامل معه، ليس على أنه وحي منزل، بل على أنه تراث قابل للإضافة والحذف والتبديل على مدى العصور. ومن هنا ينفرد القرآن بكونه الكتاب السماوي الوحيد الذى لم يتعرض نصه لأدنى تغيير، وتكاملت فيه كل الرسالات السابقة، وجمع بين الشهادة والغيب، وكان هو قوام الوجود كله، وناظم كل ما في هذه الحياة. وبما إنه هو المصدق والمهيمن على كل ما أنزله الله على الرسل من قبله، فإنه ينبغي أن يكون من باب أولى، هو المهيمن والمصدق لكل ما هو صحيح من أقوال البشر كافة بما فيهم رسل الله تعالى^(١). والنص القرآني الناظم للدين كله هو قول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦). والسبيل لاستعادة الوعي بالوزن الحقيقي لكل أبعاد الظاهرة الإنسانية وشبكة علاقاتها وتفسيرها، هو التعامل معها من منطلق الجملة القرآنية الواحدة، أى باعتبار القرآن جملة مناظرة للكون المنظور كله^(٢).

(١) د. زغلول راغب محمد النجار، مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمى في القرآن الكريم والسنة المطهرة، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٩، ص ٣٧-٣٨، ص ٥١-٥٨.

(٢) الرؤيتان المعرفيتان للاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي، ضمن: مؤتمر الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي: الفلسفة والنظام، القاهرة: مركز البحوث والمعلومات بأكاديمية السادات =

٢- التوعية بأهمية التعلم على يد متخصصين وليس من الصحف وإفساح مجال للشباب في مجالس الشيوخ: تعود موجة الفراغ الراهنة في أوساط الشباب منذ بداية العقد السابع من القرن العشرين، إلى غياب الاحتكاك المباشر بين الأجيال، واعتماد الصحوة الإسلامية الراهنة على المكتوب مع إمكانية وجود خلل فيه هو ذاته أو في القدرة على استيعابه، أكثر من اعتمادها على التلقى المباشر عن علماء الأمة والاحتكاك بواقعها.

ومن هدي الصحابة الذي يجب العودة إليه حظر إبعاد الشباب عن مجالس الكبار. فلقد كان عمرو بن العاص يوصى عليه القوم أن "أوسعوا للشباب وأدنوهم وحدثوهم وأفهموهم الأمور، فإنهم اليوم صغار قوم وغدا كبار قوم. وإنا كنا صغار قوم وأصبحنا كبار قوم"^(١).

٣- التركيز على تحرير العقل المسلم من الخرافات والأساطير والأفكار المغلوطة: من الأهمية بمكان استعادة الخطاب الإسلامي لهدى الصحابة في مجال تحرير عقل الأمة من الخرافات والأساطير. من ذلك حظر عمر بن الخطاب الأخذ من كتب أهل الكتاب. ومنع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، صبيغا من الخوض في متشابه القرآن، وأوصى العامة باعتزاله

= للعلوم الإدارية، ومركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٥، ص ١٥-١٩. ومن المصادر المهمة التي تصب في اتجاه القراءة السياقية للقرآن الكريم: تحية عبد العزيز اسماعيل، قضية السورة ومفتاحها، القاهرة: مطابع الأهرام، د.ت. وللتوسع في الأفق المنهاجية الرحبة لهذه المنهاجية وضوابط الاستعانة بها في بناء المفاهيم القرآنية، انظر: د. طه جابر العلواني، الوحدة البنائية للقرآن الكريم، القاهرة: الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ص ٨-١٤، د. طه جابر العلواني، لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، القاهرة: الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ص ٥١-٥٤. د. طه جابر العلواني، نحو موقف قرآني من النسخ، القاهرة: الشروق الدولية، ٢٠٠٨، ص ١٢-١٤، ٣٤-٥٠ ص ٦٠-٧٢. وللحصول على فكرة رواد هذه المنهاجية وسيرتها، راجع: د. السيد عمر، الأنا والآخر من منظور قرآني، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨، ص ٣٢-٣٣.

(١) محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت: دار بيروت، ١٩٦٠، ج ٤ ص ١٩٣.

إلى أن يكف عن ذلك^(١).

ولنتذكر هنا أهمية محاكاة ما فعله الفاروق عمر بن الخطاب في مواجهة خرافة عروس النيل، التي كان المصريون يلقون بموجبها، بأجمل فتاة لديهم كل عام في النيل ليواصل جريان مائه، حيث قوض ذلك المعتقد الخاطئ بما عرف ببطاقة عمر، التي أرسلها إلى المصريين، وطالبهم بإلقائها هي وليس آدمية في النيل، مكتوب عليها: "إن كنت تجري من قبل نفسك فتوقف، وإن كان الله يجريك، فإننا نسأل الله أن يجريك" وجاء الفيضان في ذلك العام أعلى من أي عام سابق. وتخلص المصريون من تلك الأسطورة إلى الأبد^(٢). وكم في أوساط شبابنا من خرافات وأساطير جديدة بالاستئصال.

٤- بناء الوعي بشروط الاجتهاد الصحيح وتعميم الوعي بثمراته: الاجتهاد مضبوط بالاستطاعة، وهو استفراغ الفقيه الجهد في تحصيل ظن بحكم شرعى. ولا بد أن يكون الفقيه بالغاً عاقلاً ثبتت له ملكة استخراج الأحكام من مأخذها. فالاجتهاد مأخوذ من الكشف وبذل الطاقة. ويخرج منه ما يحصل مع التقصير في بذل الوسع. ومعيار بذل الوسع هو أن يحس الفقيه من نفسه أنه لم يعد قادراً على طلب المزيد، وأن يكون عالماً بلسان العرب، وبأصول الفقه، وبنصوص الكتاب والسنة، وبما أجمعت عليه الأمة.

والمسائل على نوعين: نوع لكل مجتهد فيه نصيب من الصحة، ونوع الحق فيه مع مجتهد واحد من المجتهدين. ويتعلق النوع الأول بالعقليات في دائرة

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، تفسير سورة الإخلاص، تحقيق: د. عبد العلى عبد الحميد حامد، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧، ص ٢٥٢-٢٥٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤٦٧.

المباحات، والثاني في المعلوم من الدين بالضرورة، وما انعقد عليه إجماع الأمة كمسألة خروج الموحدين من النار، ومسألة خلق القرآن. والمخطئ في دائرة هذا النوع من القضايا لا شك في تأثيمه. إلا أن الصواب تحاشي الخوض في مقولة تكفير أهل القبلة. فالوقوع في ذلك حتى على مستوى رمي البعض أمثال هؤلاء بكفر النعمة، فتح بالنسبة للمعتزلة باب تكفير خصومهم، وكذا تكفير بعضهم بعضا. فلا يكفر إلا من جهل وجود الرب، أو علم وجوده، ولكنه فعل فعلا أو قال قولاً أجمعت الأمة على أنه لا يصدر إلا عن كافر. أما القول بتكفير مجتهدي الإسلام بمجرد الخطأ في الاجتهاد في شئ من مسائل العقل، فقول لا يقول به إلا من لا يبالي بدينه ولا يحرص عليه^(١).

وتحتاج الأمة في هذا الصدد إلى إبراز الاجتهادات الفقهية المبينة لمسئولية الإنسان فردا وجماعة عن الإحسان والعدل في الأرض في مواجهة علاقته بنفسه وبالغير من البشر، وكل الموجودات. وتكفي الإشارة هنا إلى بعض أمثلة. فمن مقتضى حفظ النعمة وشكرها استعمال كل شئ فيما خلقه الله له والتعامل معه على النحو الذي شرعه الله تعالى، و التنشئة على التحوط البالغ في الدين، وفي الدماء والأموال والأعراض، وتحري العدل والإحسان والبعد عن الظلم والعدوان.

ومن بين ما ينبغى التركيز عليه الاجتهاد على تنشئة شباب الأمة عليه: عالمية السلام الإسلامي، ومحورية كلمة السواء. فالآية ٦١ من سورة الأنفال تشير إلى سلم يعنى: طلب غير المسلم المحارب السلامة في الحرب، سواء بالدخول في الإسلام، أو الاستجابة لدواعي الدخول في علاقة عهد

(١) د. محمد كمال إمام، أصول الأحكام الشرعية، الفقه الإسلامي، مفاهيم ومدارس ونصوص،

الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة، ٢٠٠٥، ص ٣٠٩ - ٣٢٨.

وصلح مع المسلمين. وتأمرونا الآية ٩٠ من سورة النساء بالاستجابة لمن عرض السلام، بل تصل إلى حد نفي حق الأمة في نصره مسلم بدار قوم بين الدولة الإسلامية وبينهم عهد أو ميثاق. فالوفاء بالعهد وبالأمانة مبدأ إسلامي ملزم في كل الأحوال. والأصل في العلاقات الدولية بين الأمة الإسلامية والأمم الأخرى هو شرعية التعاقد، ووجوب الوفاء بالعقود^(١). ومن مقتضى الإيمان الذي هو نقيض الكفر، تحري الإحسان في مواجهة النفس والغير، بتحاشي الإفساد في الأرض بعد إصلاحها. فالله لا يحب الفساد. والشريعة الإسلامية دين ودنيا وحضارة وقانون. والشريعة مقننة بطبيعتها كما جاء بها الوحي المنزل على النبي صلوات الله وسلامه عليه، وكما تبينت في القرآن الكريم وفي صحيح السنة النبوية المطهرة. وما نحتاج إليه ليس تقنين الشريعة، بل تقنين الفقه الذي أنتجه العقل المسلم استنادا إلى فهم للشريعة مرتبط ببيئة وملابس زمانية ومكانية، وكان رائدهم فيه كما قال قائلهم اعتبره مجرد رأي، علمنا هذا رأي فمن جاءنا بأفضل منه قبلناه.

وما يجب التركيز عليه هنا أن الفقه الإسلامي أنجب ثلة من المبادئ تشكل منظومة عمرانية فريدة، تشمل: التوحيد ونفي الوساطة بين العبد وربّه، الحرية والعدالة والمساواة، والتضامن، وحرية العقيدة، والسببية، والمسؤولية، وعدم جواز التناقض، ولا الفساد ولا التكليف بغير المستطاع، وبالتبعية اعتبار الضرورات تبيح المحظورات بقدرها، وتحري الاقتصاد بكل صورته، والشورى، والتعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ونبذ الظن السيئ، ومبدأ عدم جواز الاحتجاج

(١) د. عبد المجيد بوكركب، ضمانات إقرار السلام في الفقه الإسلامي الدولي والقانون الدولي العام (دراسة مقارنة)، المحلة الكبرى: دار الكتب القانونية، ٢٠٠٨، ص ٥٦-٦٣، ص ١٠١-١٠٥.

بالجهل بمبادئ الإسلام، وهيمنة القرآن على الدين كله، فلا دين عند الله إلا الإسلام، ومبدأ ضرورة النظام المجتمعي وحجية القضاء. والعلاقة بين الإنسان والبيئة بما فيها من أرض وهواء وكائنات حية لا ينبغي أن تكون علاقة تسلط، بل علاقة ترابط وتعاضد كعلاقة أعضاء الجسد الواحد المتراحم. وفساد البيئة قد يكون نتيجة فعل مفسد لها، وقد يكون من عواقب تراكمات ذلك الفعل^(١).

ومما ينبغي تركيز الاجتهاد عليه التنشئة على روح الأمة، واستعادة الاستجابة لشعار: وا إسلاماه. والسبيل إلى ذلك هو استعادة الوعي بالأخوة في الدين وبأخلاقيات الجسد الواحد المتراحم، وبهدى الصحابة في كراهية الخلاف ودواعي الفرقة. ومن المبادئ التي أكدوا عليها والتي تحتاج الأمة إلى إعادة الوعي بها وتمثلها، أن الخلاف شر، وأن سيفان في غمد واحد لا يصلحان. ومن هدي الصديق أبي بكر اعتبار الضعيف عند ولي الأمر هو المعتدي على حقوق غيره، حتى يأخذ منه الحق، والقوى عنده هو المظلوم حتى يرد عليه مظلمته، فضلا عن دعوته رضي الله عنه لملازمة الجماعة. وبرأي الفاروق عمر، فإنه لا خير في أمير لا يقول الحق، ولا يقال عنده الحق. ومن هديهم بغض الذنب، لا المذنب، ورعاية حرمة الأموال والدماء والأعراض^(٢).

٥- التركيز في المقررات الدراسية وفي رسالة المسجد، وفي الرسالة الإعلامية على إبراز القيم التربوية في القصص القرآني: يمثل القصص القرآني

(١) د. أحمد حشيش، المفهوم القانوني للبيئة في ضوء مبدأ أسلمة القانون المعاصر، القاهرة: دار الكتب القانونية، ٢٠٠٨، ص ٢٤-٤٢، ص ١٤٠-١٤٩.

(٢) محمود طعمة حلي، مختصر حياة الصحابة، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٣، ص ٨١-٩٠، ص ١٢٦-١٣٣.

معينا ثريا لبناء نماذج للقدوة، وللتنشئة على الوسطية، وبناء الوعي بما ينبغي أن يكون، وبما يمكن أن يكون، وتصوير المعاني الذهنية بصورة ملموسة. ومن شأن بناء الوعي بمساحات الحرية المتضمنة في معاملة شتى الأقسام لرسلمهم تأسيس عقلية مسلمة لا نظير لها في القدرة على التحصين الذاتي ضد التحديات والفتنة في الدين، وقبول المعارضة^(١).

٦- التركيز على إعادة بناء المفاهيم: تتسم المفاهيم الإسلامية في وضعيتها المعيارية، بكونها مستمدة من مصدر ثابت، مستقل عن المكلف، وعن الخبرة المعاشة. ومع أن المفاهيم تتفصل في بنيتها المعيارية عن الواقع، فإنها لا تتفصل عنه في تعاملها معه، كما أنها تمثل فهما للنصوص، قابلا لإعادة النظر فيه^(٢).

ويحتاج تجفيف منابع ظاهرة التكفير والتحسين ضدها، إلى إعادة بناء المفاهيم المفتاحية الإسلامية مثل مفهوم الإنسان والدين والأمة. ومن أهم ما ينبغي التأسيس له في هذا الصدد بخصوص مفهوم التكفير، بناء الوعي بالتحوط البالغ للسلف الصالح من المفكرين المسلمين من إطلاق لفظ الكفر على أحد.

(١) من النماذج التي تصب في اتجاه مثل هذا التصور، على سبيل المثال: سيد عبد الحميد محمود السعدني، القيم التربوية في القصص القرآني، قصة سيدنا يوسف، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة: كلية البنات جامعة عين شمس، ١٩٨٢، سيد احمد محمد طهطاوى، القيم التربوية في القصص القرآني، رسالة ماجستير غير منشورة، أسوان: جامعة أسيوط، ١٩٨٥، عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٤، د. التهامي نفرة، سيكولوجية القصة في القرآن، تونس: الشركة التونسية للتوزيع والنشر، ١٩٧٤، محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص القرآن، مكة: مؤسسة الجريس للتوزيع والإعلان، ١٩٨٦. وتحتاج الأمة في هذا المضمار إلى ترقية ذلك القصص من الإسرائيليات ومن إسقاطات العصر على من تناولوها بالبحث، والتركيز على إبراز عبرتها غير المرتبطة بمكان ولا بزمان.

(٢) د. ماجد زكى الجلاذ، دراسات في التربية الإسلامية، عمان: دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣، ص ١١٩-١٢٠.

ومن بين النماذج عميقة الدلالة هنا تنبيه ابن تيمية إلى حقيقة أن مفهوم الشرك المطلق لا يدخل فيه أهل الكتاب، بل يدخلون في الشرك المقيد. ويميز القرآن بين المشركين وبين أهل الكتاب لأن أصل دينهم ليس فيه شرك. وفي المقابل بين رحمه الله أن مجرد النطق بالشهادتين لا ينقل الإنسان من وضعية الجهالة إلى وضعية العدل، بل يحتاج الإنسان بعد ذلك إلى تحري العدل والاستقامة والتوبة النصوح^(١).

ومن الأهمية بمكان في عملية إعادة بناء المفاهيم، تحري استقامتها مع النسق المعرفي والعمق الفكري للأمة، بتحاشي الخوض في الفضاءات التي يوجهنا الشرع إلى كراهية التتقيب فيها، والتي تشمل: السؤال عما لا ينفع في الدين، وبعد بلوغ السائل حاجته من العلم، ومن غير احتياج له في الحال، والسؤال عن المسائل المشككة والمعضلة، والسؤال عن علة حكم تعبدي، والبلوغ بالسؤال حد التكلف، وإظهار معارضة القرآن والسنة بالرأي، والسؤال عن المتشابهات، وسؤال الغلبة والإحكام والتعنت^(٢).

٧- التشبث على الوعي بقيم الحوار في القرآن في تأسيس رصين لأداب الحوار مع المخالف المصر على رأيه الفاسد، ظهرت مؤخرا كتب دراسية جديدة بالنسج على منوالها وبتدريسها في كل مراحل التعليم وتعميقها، للتحصين ضد ظاهرة التكفير، تجلى حقيقة تفويض الأمر لله بعد النصيحة المتكررة، والصفح عن المخالف ودعوته إلى السلم، مع بذل غاية الجهد في البيان ليحيا من حي عن بينة ويهلك من يهلك عن بينة،

(١) ابن تيمية، دقائق التفسير، تحقيق: د. محمد الجليند، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٤ ج ٣ ص ١٤، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٢) د. ماجد زكي الجلاذ، مرجع سابق، ص ١٥.

وتبين حقيقة كون الإسلام مبنى على رفع الحرج، وعلى هدر نتيجة القول والعمل الواقع تحت الإكراه، وتؤكد على أن الأصل في التعامل بين المسلم وغير المسلم المسالم هو القسط والبر والعدل والتسوية في الحقوق والواجبات^(١).

٨- بناء الوعي بتحوط السلف البالغ في إطلاق وصف الكفر: منبع الظاهرة التكفيرية فيما أرى هو القراءة المغرضة والمتهافئة لأصولنا الإسلامية، التي تقوم على التعضية، وعلى لوي عنق النصوص للتدليل بها على صحة رأى مسبق، وليس على البحث فيها عن دليل للإستقامة. وتختزل تلك القراءة عادة المنظومة الفكرية الإسلامية بكاملها في نص واحد، هو حتى على فرض صحته، محكوم بضرورة قراءته في سياق بقية النصوص الشرعية الصحيحة.

وتغيب عن مثل تلك القراءة دلالات مبادئ إسلامية هامة تبين أن الظلم والكفر درجات. فظلم دون ظلم، وكفر دون كفر. ويغيب عنها الوعي بأن أحب الدين إلى الله أدومه، ولا تمتلك أذنا واعية للتحذير من أن من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة مع أن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما. بل إن مثل تلك القراءة لا تعير بالا لعمق دلالة تصنيف البخارى حديث كفران العشير والإحسان ضمن كتاب الإيمان، ووصف النبي لتصرف صدر من أحد الصحابة بأنه من أمر الجاهلية، ضمن باب المعاصى من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها، ونهى النبي عن قيام الليل كله والندب إلى الاكتفاء بما نطيق، وتصنيف تحذير النبي من أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، تحت عنوان (خوف المؤمن من أن يحبط

(١) من نماذج ذلك: محمد سيد طنطاوى، مختارات من آداب الحوار في الإسلام، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.

عمله وهو لا يشعر)، وتصنيفه حديث التحذير من أنه إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، تحت عنوان (إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا)، وأخيرا التأكيد النبوي على أنه يخرج من النار كل من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة أو ذرة من بر^(١).

(١) انظر هذه الشواهد في: زين الدين احمد عبد اللطيف الزبيدي، التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، تحقيق: ابراهيم بركة، مراجعة: احمد راتب عرموش، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٢، ص ٣٠-٣٤، و٣٠٢. وحديث (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) وارد أيضا في صحيح مسلم، باب الإيمان عن أبي محمد بن بكار بن الريان، وعونين سلام، عن محمد بن طلحة عن محمد بن المثنى، عن محمد بن جعفر، عن شعبة، كلهم عن زييد عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود.

الخاتمة رؤية استشرافية

هذه هي أبعاد التخلية والتحلية لمعالجة مؤسسية للموجهة الراهنة من الظاهرة التكفيرية. والإسلام دين محبة وسلام وعمارة لداخل الإنسان وخارجه فردا وجماعة. وهو لا يرفض غير الإلحاد والعدوان والفتنة في الدين. وهو دين الفطرة الذي يوحد الذات الإنسانية بلا انفصام والمجتمع بلا تطاحن، والعالم تحت راية الأخوة في الإنسانية، ولا يكتفي بالستر الظاهري، بل يضيف إليه تقوى القلوب. والصناعة الثقيلة هي: صناعة الإنسان السوي. والفهم الصحيح هو الذي يصنعه^(١).

وما عليه رأى أهل السنة والجماعة مما يجب العوض عليه بالنواجذ، هو عدم جواز تكفير أحد من أهل الملة بذنوب ما لم يستحلها. فمن أصول أهل السنة والجماعة، كما يقول ابن تيمية، عدم تكفير أحد بذنوب. فهم لا يكفرون أحدا ببدعة. والبدعة مقترنة عندهم بالفرقة، والسنة بالجماعة. فيقال: أهل البدعة والفرقة، وأهل السنة والجماعة. والفسق عندهم خاص بارتكاب الكبائر عن عمد، والإصرار على الصغائر بلا تأويل^(٢).

وفرض العصر على الجماعة العلمية في عالمنا الإسلامي في مختلف التخصصات هو القيام بجهد بحث مؤسسي رصين يرصد مصادر اعتلال المفاهيم الإسلامية في واقعنا الراهن ومن بينها مفهوم التكفير، ومصادر

(١) د. نعمات احمد فؤاد، عبقرية الإسلام، القاهرة: مطبوعات الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية، ١٩٨٢، ص ١٢٨، ص ٢٤، ص ٢٣٢-٢٣٦.

(٢) د. سامي محمد الصلاحيات، معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٦، ص ١٩١-١٩٣.

الاستقامة المفاهيمية، ويضع خططا عملية لتجفيف منابع الاعتلال، ولترسيخ بذور الاستقامة المفاهيمية في واقع الأمة خاصة والبشرية بوجه عام. فالمفاهيم تعاني في واقع الإنسانية الراهن من: الجدل العقيم، والغيبش المفاهيمي والثنائيات الوهمية المتقابلة وهجر المفاهيم القرآنية ونسيان الأمة حقا مما ذكرت به على نحو جعلها، تتحرك بمغناطيسية غربية لا إسلامية، تفاضل بين نور الوحي والفطرة السليمة والعقل، وتستبيح حمى المصطلحات، وتغرق في ذهنية المقاربات والمقارنات وتتحم العامة والإعلام في ساحة المفاهيم على نحو يفضي إلى التدليس والاستعمال المراوغ. وتغيب في هذه المتاهة الصورة الصحيحة للإنسان بوصفه المخلوق الحر المؤتمن المكرم العابد المسدد بالرعاية الإلهية المبتلى بالشر والخير فتنة^(١). ولا مخرج من هذه الوضعية إلا بعودة حميدة إلى استعادة المؤسسة المتكافلة المتعاونة على البر والتقوى، البانية للوعي بصحيح الإسلام.

والحمد لله الذي بحمده تم الصالحات ..

(١) د. السيد عمر، بناء المفاهيم في المنظور القرآني، مفهوم التزكية نموذجا، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، تحت النشر، ص ٨٣-٨٠، ص ٥٦-٥٠.

ثبت مصادر الدراسة

- القرآن الكريم.
- د. ابراهيم مدكور (و أبو الفداء اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، القاهرة: المطبعة الفنية، د.ت آخرون)، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٩٩٨.
- أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، تفسير سورة الإخلاص، تحقيق: د.عبد العلی عبد الحمید حامد، القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧.
- أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة، دقائق التفسير، تحقيق: د. محمد الجليند، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ١٩٨٤.
- أبو الفداء اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، القاهرة: المطبعة الفنية، د.ت، ج٣.
- أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي، تحقيق: محب الدين الخطيب، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٩٩هـ.
- د. أحمد حشيش، المفهوم القانوني للبيئة في ضوء مبدأ أسلمة القانون المعاصر، القاهرة: دار الكتب القانونية، ٢٠٠.
- أحمد خلف، مؤسساتنا الدينية بين المؤسسة والتسييس والتدويل، ضمن: الأمة ومشروع النهوض الحضاري، حال الأمة عام ٢٠٠٨، امتى في العالم، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٩.
- د. اسماعيل الفاروقى، لوس لمياء الفاروقى، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، الرياض: مكتبة العبيكان، والمعهد العالمى لفكر الإسلامى، ١٩٩٨.
- د. اسماعيل راجى الفاروقى، التوحيد ومضامينه في الحياة، ترجمة ودراسة: د. السيد عمر، قيد النشر.
- د. التهامى نضرة، سيكولوجية القصة في القرآن، تونس: الشركة التونسية

- للتوزيع والنشر، ١٩٧٤.
- د. السيد عمر، النسق السياسي للأسرة في المنظور الإسلامي، ضمن مؤتمر: واقع الأسرة في المجتمع: تشخيص لأوضاع الحاضر واستكشاف لسياسات المواجهة، القاهرة كلية الآداب جامعة عين شمس ومركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٤.
 - د. السيد عمر، الوالدية والتربية السياسية للأبناء في ضوء الرؤية الكونية الحضارية الإسلامية، ضمن الجزء الثاني من أعمال مؤتمر: نحو والدية راشدة من أجل مجتمع أرشد، سوهاج: كلية التربية بسوهاج، مركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٤.
 - د. السيد عمر، الرؤيتان المعرفيتان للاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي، ضمن: مؤتمر الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي: الفلسفة والنظام، القاهرة: مركز البحوث والمعلومات بأكاديمية السادات للعلوم الإدارية، ومركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٥.
 - د. السيد عمر، الرؤية الكلية الإسلامية والتعامل مع الأمة الإسلامية، ضمن: مؤتمر: الرؤية الكلية الإسلامية وانعكاساتها التربوية، الزقازيق: كلية التربية، ومركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٨.
 - د. السيد عمر، الأنا والآخر من منظور قرآني، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨م.
 - د. السيد عمر، توجيه بحوث التنشئة السياسية والاجتماعية في الجامعات، ضمن أعمال مؤتمر: توجيه بحوث الجامعات الإسلامية لخدمة قضايا الأمة، الزقازيق: كلية التربية جامعة الأزهر، ومركز الدراسات المعرفية، ٢٠٠٧.
 - د. السيد عمر، دور أئمة المساجد في التنشئة السياسية، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، تحت النشر.
 - د. السيد عمر، تقويم إسلامية المعرفة في ربع قرن، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، دراسة قيد النشر.
 - د. السيد عمر، بناء المفاهيم في المنظور القرآني، مفهوم التزكية نموذجا،

- القاهرة: مركز الدراسات المعرفية، تحت النشر.
- د. السيد عمر، التنشئة السياسية في المنظور القرآني، القاهرة: مركز الدراسات المعرفية (دراسة قيد النشر).
 - د. إيهاب طارق عبد العظيم، علاقة الفرد بالسلطة في ظل الظروف الاستثنائية، القاهرة: مؤسسة الطوبجي، ٢٠٠٥.
 - تحية عبد العزيز اسماعيل، قضية السورة ومفتاحها، القاهرة: مطابع الأهرام - د.ت.
 - د. جمال عبد الهادي محمد، د. وفاء محمد، أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، المنصورة: الوفاء للطباعة والنشر، ١٩٩٠.
 - د. رمضان على الشرباصي، النظريات العامة في الفقه الإسلامي، الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة للنشر، ٢٠٠٣.
 - د. زكريا سليمان، نحو منهج للتاريخ في إطار المنهجية الإسلامية، ضمن: د. أحمد فؤاد أبو باشا (وآخرون المذهبية الإسلامية، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠١٠).
 - د. زغلول راغب محمد النجار، مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٩.
 - زين الدين احمد عبد اللطيف الزبيدي، التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح، تحقيق: ابراهيم بركة، مراجعة: احمد راتب عرموش، بيروت: دار النفائس، ١٩٩٢م.
 - د. سامي محمد الصلاحيات، معجم المصطلحات السياسية في تراث الفقهاء، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٦م.
 - د. سامية حسن الساعاتي، الثقافة والشخصية، بحث في علم الاجتماع الثقافي، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت بجامعة عين شمس، ١٩٨١.
 - سليمان الجمل، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، وبهامشه: تفسير ابن عباس، القاهرة: المطبعة العامرة، ١١٩٦هـ.

- سيد احمد محمد طهطاوى، القيم التربوية في القصص القرآني، رسالة ماجستير غير منشورة، أسوان: جامعة أسيوط، ١٩٨٥م.
- سيد عبد الحميد محمود السعدنى، القيم التربوية في القصص القرآني، قصة سيدنا يوسف، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة: كلية البنات جامعة عين شمس، ١٩٨٢م.
- د. سيد أحمد عثمان، التحليل الأخلاقي للمسؤولية الإجتماعية، القاهرة: الأنجلو المصرية، ١٩٩٦.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧.
- د. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، في النظرية السياسية من منظور إسلامي، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى.
- د. طه جابر العلوانى، لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب، القاهرة: الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- د. طه جابر العلوانى، الوحدة البنائية للقرآن الكريم، القاهرة: الشروق الدولية، ٢٠٠٨.
- د. طه جابر العلوانى، نحو موقف قرآني من النسخ، القاهرة: الشروق الدولية، ٢٠٠٨.
- د. عبد الرحمن النقيب، النماذج التفسيرية في النهضة الإسلامية، ضمن: د. أحمد فؤاد أبو باشا (وآخرون المذهبية الإسلامية، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر، ٢٠١٠م.
- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، القاهرة: دار الفكر العربى، ١٩٧٤.
- د. عبد المجيد بوكركب، ضمانات إقرار السلام في الفقه الإسلامى الدولى والقانون الدولى العام (دراسة مقارنة)، المحلة الكبرى: دار الكتب القانونية، ٢٠٠٨.
- د. عبد الهادى الجوهري، معجم علم الاجتماع، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة،

- ١٩٨٠.
- عبده إبراهيم، المراجعات طريق جديد للجماعات الإسلامية، أمتى في العالم، ٢٠٠٩.
 - د. فضل محمد سلطح، المسؤولية السياسية بين الدولة والمواطن، دراسة تحليلية في فلسفة السياسة، الإسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر، ٢٠٠٧م.
 - د. ماجد زكى الجلاد، دراسات في التربية الإسلامية، عمان: دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣.
 - محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت: دار بيروت، ١٩٦٠.
 - د. محمد سيد طنطاوى، مختارات من آداب الحوار في الإسلام، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر، ٢٠٠٤م.
 - د. محمد علي محمد (وآخرون)، المرجع في مصطلحات العلوم الإجتماعية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥.
 - د. محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ٢٠٠٨م.
 - محمد قطب عبد العال، نظرات في قصص القرآن، مكة: مؤسسة الجريس للتوزيع والإعلان، ١٩٨٦.
 - د. محمد كمال إمام، أصول الأحكام الشرعية، الفقه الإسلامى، مفاهيم ومدارس ونصوص، الإسكندرية: دار الجامعة الجديدة، ٢٠٠٥.
 - محمد كمال محمد، التجديد رؤى وتجارب، ضمن، أمتى في العالم، ٢٠٠٩.
 - د. محمد نصر مهنا، العلاقات الدولية بين العولمة والأمركة، الإسكندرية: المكتب الجامعى الحديث، ٢٠٠٦.
 - محمود طعمة حلبى، مختصر حياة الصحابة، بيروت: دار المعرفة، ٢٠٠٣.
 - د. نصر محمد عارف، في مصادر التراث السياسى الإسلامى: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل، هيردن: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٤.



- د. نعمات احمد فؤاد، عبقرية الإسلام، القاهرة: مطبوعات الاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية، ١٩٨٢م.
- وسام السويدي، التقريب بين السنة والشيعة، أمتى في العالم، ٢٠٠٩.
- د. يوسف القرضاوى، من فقه الدولة في الإسلام، القاهرة: دار الشروق، ص ١٩٥-٢٠٠، خالد السعد، خطب الشيخ القرضاوى، القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠٠٣.
- Angel Rabasa (et al), Building Moderate Muslim Networks, Rand Center for Middle East Puplic Policy , Santa Monica: , Rand Corporation,2007 ,PP. XI- XIV.